

ملف مصنّف سري

اسم الكتاب : ملف مصنف سري
تأليف : د. عاطف سلامة
تنسيق داخلي : رفيق جلول
تصميم الغلاف : شحدة ضرغام
رقم الإيداع : 2026/29125
الترقيم الدولي : 978-977-6955-14-1
الناشر : اسكرايب للنشر والتوزيع

للتواصل معنا

 scribe20199@gmail.com

 +201005079256

 +201099727510

 دار اسكرايب للنشر والتوزيع 



جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

للمؤلف منير الشهابي

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة

بأي شكل من الأشكال

ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

د. عاطف سلامة

رواية

ملف مصنف سري



2026

لحظة الانفجار

لم يكن هناك تحذير. لم يسبق الصاروخ إنذارٌ ولا ظلّ في السماء. كل ما كان، هو رعدةٌ في الهواء... ثم صوتٌ لم تسمعه أذن آدم من قبل، وكأنّ الله مزّق الغيم بصيحة جوع.

كان آدم واقفاً في المطبخ. الساعة تشير إلى السابعة مساءً. على النار يغلي إبريق الشاي. زوجته كانت قبل لحظات تتادي أبناءها ليكفّوا عن الشجار.

وفي الطابق الثالث فوقهم، أمّه كانت ترتّل دعاء المساء، وأبوه يتلو سورة الملك.

بيتٌ عاديّ... من تلك البيوت التي لا تفكر أبداً أن تنتهي.

ثم جاءت الطائرة. لم يرها أحد. لم يسمعها أحد. في الثانية التالية، صار المطبخ جحيماً. انقلبت الأرض.

الهواء صار حجارةً، والصوت نازراً، وكل شيء انهار.

لم يفهم آدم ما جرى. شعر أولاً بأنّ الأرض مالت، ثم ارتفعت، ثم سقطت فوقه. البلاط تشقق، والغاز انفجر، والزجاج دخل في جلده، والحديد طحن عظام فخذه، والركام بلع جسده حتى رقبتة. ثم... صمت.

لم يعد يسمع شيئاً. لا صراخ، لا خطوات، لا أسماء. كل من كان فوقه صار تحته. كل من كان حوله صار تراباً.

أراد أن يصرخ... فخرج من فمه تراب. أراد أن ينهض... فلم يجد سوى ساق مكسورة، ويداً تتزف دون ألم.

مرت الدقائق دهوراً. حين عاد وعيه جزئياً، أدرك أنه حي. والأغرب، أنه لم يمّت وحده... بل عاش وحده.

تحسس وجهه. أنفه ينزف. جبينه مشروخ. لكنه حي.

ثم انتبه... أن هناك شعاعاً رفيعاً من الضوء. ليس أمامه، ولا فوقه، بل من شقّ صغير في الكتلة الخرسانية التي تكوّنت فوق جسده كأنها شاهد قبر حي.

رفع رأسه قليلاً.

بصعوبة، وبألم لا يوصف، استطاع أن يحرك جسده إلى الوراء، ليجد نفسه أمام فتحة، صغيرة بحجم الكف، لكنها مفتوحة تماماً على الخارج. ومنها... رأى شيئاً لم يفهمه أول الأمر.

رأى فيلا بيضاء، لم تكن مهجورة كما يظن. بل كانت تعجّ بالجنود. جنود مدججون، يتحركون مثل كوابيس، يخرجون ويدخلون، ينصبون شاشات، يرفعون رايات، يتحدثون بأجهزتهم اللاسلكية.

فرك عينيه.

أكان هذا حلمًا؟

هل ما زال حيًّا فعلاً؟

ومن عمق الركام، وعتمة الغبار، وحرارة الدم، وتحت ست طبقات
من الخراب... بدأ آدم يشاهد.

الركام الحيّ

"هل متُّ؟"

سأل نفسه، ولم يردّ عليه أحد. رفع رأسه قليلاً، فارتطم بالجدار
المائل فوقه. الألم كان حادًا، صريحًا، لاذعًا. وهذا وحده، كان كافيًا
ليوقظه من وهم الموت.

هو حيّ.

لكنه ليس في الدنيا التي يعرفها. الدنيا التي فيها أمّه توقظه على
الإفطار، وزوجته تسأله عن الغاز، وطفله الصغير يصرخ لأن أخته
أخذت منه الخبز.

لا. هذه دنيا أخرى.

دنيا مصنوعة من تراب مبلول بالدم، وحديد مغروس في الضلوع،
وصمتٌ ثقيل لا يشبه الصمت الذي قبل النوم... بل صمت القبر.

جسده لا يتحرك. ساقه اليسرى تشبه عصًا مكسورة. ظهره نصفه
تحتة ونصفه فوقه. يده اليمنى مجروحة لكنها حرة.

يتنفس...

نعم...

يتنفس من فم نصفه مغلق بالطين، ونصفه الآخر مقشر الجلد.

ظلّ هكذا، ساعات؟ أيام؟ لا يدري. الوقت في الظلمة لا يُقاس.

كان كل ما يملكه: شقّ في الكون، ينفذ منه ضوءٌ رماديّ مائل إلى
الصفرة. شقّ بعرض كفّ طفل، بارتفاع قبضة.

اقترب منه. كان خلفه، إلى يساره، بين باب الثلاجة وباب المطبخ
المائل.

زحف إليه مثل دودة.

كل حركة تصرخ.

كل زحفٍ يدميه.

لكنه وصل.

ومن هناك، من تلك الفتحة الوحيدة، رأى الحياة مستمرة... ولكن
ليست الحياة التي يريدّها.

كان المشهد كالحلم.

الفيلا التي يعرفها، تلك التي على ناصية الحارة، والتي كان يمرّ بها كل صباح وهو يذهب للمخبز... تحوّلت.

سياج حديديّ أُقيم حولها. أبراج مراقبة صغيرة نُصبت. أجهزة اتصال، خوذ، سترات، وجنود.

جنود بوجوه لا مبالاة. يضحكون، يصرخون، يشربون القهوة، يُخرجون من سياراتهم صناديق، حواسيب، خرائط.

كانت الفيلا التي لا تبعد أكثر من مئة متر، قد صارت مركز قيادة. وأدرك فجأة...

أنّه يرى كل شيء.

من مكانه، من وضعه الثابت، يرى بشكل مستقيم، مثل عدسة كاميرا ضيّقة. لا يرى اليمين، ولا اليسار، ولا الأعلى. لكن كل ما يقف أمام تلك العدسة... يُعرض أمامه بكل وضوح.

ولأول مرة منذ القصف... شعر آدم بشيء يشبه الدهشة.

شيء غريب...

ليس أملاً.

وليس خوفاً.

بل انتباه حيّ. انتباه فطريّ للإنسان صار شاهداً.

هم لا يعلمون بوجوده.

ولا أحد غيره يرى.

آدم... صار عيناً داخل الركाम. عيناً ترى، ولا تُرى. عيناً عرجاء،
مكسورة، محاصرة... لكنها مفتوحة.

وامتدت لحظات الصمت، لا يعرف هل يبكي أم يضحك...

لكنه، في غمرة وجعه، فهم شيئاً واحداً: هو حي... وما يراه لا يجب
أن يُنسى.

المشهد الأول من الجحيم

في اليوم الثالث، بدأ آدم يميّز الوجوه. كان الضوء قد تغيّر قليلاً. الشمس تتبدّل، والظلال تتحرّك، وهو لا يتحرّك. لكن فتحة النظر ظلّت مغلقة له... تمدّه بالحقيقة، حتى لو كانت قبيحة.

الجنود لا يشبهون بعضهم. هناك من يصرخ كثيراً، وهناك من يضحك بلا سبب، وهناك من يمشي كأنه في نزهة. ثمّة شاب أشقر بلحية خفيفة، يحمل جهاز اتصال ويبدو أنه مسؤول النوبات.

وثمّة فتاة عسكرية، تظهر قليلاً وتختفي، تعطي أوراقاً وتجلس خلف طاولة مؤقتة عند مدخل الفيلا.

لكن ما لفت نظره في ذلك الصباح، كان سيارة بيضاء. دُفعت إلى داخل الساحة.

نزل منها شابان مقيّدا اليدين، ووجه كل واحد منهما مغطى بكيس أسود.

أحس آدم بشيء يتقلّب في بطنه. لم يكن قد أكل سوى قطعة بسكويت وقليل من الفول المعلّب منذ أمس... لكن معدته ثارت.

أحد الشابين كان طويلاً. يعرفه. نعم... هو "ضياء". شاب من الحارة، يعمل في الخياطة، له ضحكة مميزة ويد ناعمة كأنها لا تعرف الطين. والثاني... لا يعرفه.

اقتيد الاثنان إلى الداخل.

غابوا.

مرت ساعات.

ثم خرج "ضياء".

خرج وهو لا يمشي. بل يُسحب، وجهه مكشوف، عيناه متورمتان، ثيابه ممزقة.

رماه أحد الجنود على الأرض ككيس من القمامة.

ثم بصق عليه.

ثم عاد إلى الداخل.

آدم شهق. لم يقوَ على الكتم هذه المرة.

كاد صوته يخرج، لكنه خاف. خاف أن يسمعه أحد... فيعرفوا أنه حي.

ظلّ ضياء ملقًى على الأرض ثلاث ساعات. ثم، جاء جندي وجّره من قدميه إلى الظل.

في العصر، وصلت سيارة أخرى. لكنها لم تكن تحمل رجالاً.

كانت تحمل فتاة واحدة. يبدو عليها الخوف. رأسها مغطى، لكن ليس بالكامل. عينان واسعتان، شفتان مشقّقتان، ووجه طفولي.

اقتيدت إلى الداخل.

آدم بدأ يرتجف.

لماذا فتاة؟

لماذا وحدها؟

لماذا يُدخلونها دون أن يرافقها أحد؟

لم تمرّ ساعة، حتى بدأت الأصوات. أصوات لا تُسمع بوضوح،
لكن آدم لم يحتج لسماعها كاملة. كان الصراخ كافيًا.

مرة صوت أنثى، يعلو ثم يختنق. مرة ضحكات، مرة سباب، مرة
صمت ثقيل.

ثم خرج ثلاثة جنود، واحد منهم يعدّل سرواله وهو يضحك.

والآخر يرمي شيئًا في كيس أسود. والثالث، يدخل سيجارة ببطء...
كأن ما جرى لم يكن شيئًا.

ثم... لم تخرج الفتاة.

مرّت الساعات.

وفي الليل... أخرجت. لكنها لم تكن واقفة. كانت على حمالة.
مغطاة برداء عسكري. لا تتحرك. وجهها مكشوف... لكنه بلا حياة.

آدم... لم يكن يملك صوته.

لم يملك يده.

لم يملك سوى دمعة واحدة، سقطت على صدره، دون أن يقدر حتى أن يمسحها. هكذا عرف أن ما يراه... ليس مجرد احتلال. بل جريمة. ومن تلك اللحظة، لم يعد آدم مجرد شاهد... بل صار سجيناً لذاكرة لا تعرف الرحمة.

ضوء لا يُطفأ

في الخارج، انتهى النهار. لكن داخل الفيلا، لم ينتهِ شيء .
آدم لم يكن يملك ساعة، ولا هاتفاً، ولا ضوءاً طبيعياً. كان يضبط الزمن على حسب صوت الطائرات، وتغيّر ضوء الفتحة، والصدى الخافت لصوت الأذان المتكسر من بعيد.
وفي الليل، كان يعرف أن الليل قد بدأ... لا لأنه حلّ الظلام، بل لأن الضوء في مركز القيادة اشتدّ.
تلك الفيلا... كانت تشتعل. أنوار بيضاء، باردة، لا تهدأ. إنارة موجهة إلى الأعلى، وأخرى تنير باحة الفيلا، وأخرى تسطع من الداخل عبر النوافذ المكسوة بزجاج عاكس.
آدم كان يراها كلها. كأنها قمر وُلد من خاصرة الموت، وأقسم ألا يغيب. تحت الركام، كل شيء مظلم.
العنمة لها طعم، ورائحة، وثقل. لكن تلك البقعة التي تقع أمام فتحة عينه... كانت مشتعلة كأنها مسرح.

شاهد الجنود يتبدّلون.
نوبة تخرج، ونوبة تدخل.
نوبة تضحك، ونوبة تتنّاب.

كان فيهم البدين الذي يأكل دون توقف. وفيهم الطويل ذو الندبة تحت عينه. وفيهم ذاك الذي يحب الموسيقى، يخرج سماعته، ويهز رأسه في الظلمة. كلهم يمرّون من أمام عينه، دون أن يعلموا أن عينًا عربيّةً مكسورةً تحت التراب تراقبهم.

في الليلة الرابعة، رأى شيئًا جديدًا.

جلس الجندي ذو الندبة تحت المصباح، وفتح خريطة كبيرة.

انضم إليه جنديان آخران، ثم جاءت الفتاة العسكرية نفسها، حاملة جهازًا لوحيًا.

أشارت إلى نقطة على الخريطة.

تكلّمت.

هو لا يسمع الكلمات، لكنه قرأ من تعابير الوجه أن شيئًا ما يُخطط له.

ثم دخل ضابط يبدو أعلى رتبة، برتبة على الكتف، وله لحية مهذبة، ونظرات ثاقبة.

توقف الجميع عند دخوله.

أدوا تحية عسكرية.

ثم بدأ يتحدث بسرعة، يشير بيده إلى الخريطة، ثم إلى الهواء، ثم يخرج ورقة من جيبه ويناولها للفتاة.

أحد الجنود صفق.

والآخر ابتسم.

آدم فهم...

هذا ليس اجتماعًا عاديًا. إنها غرفة قرارات. وهذا المكان ليس فقط
"مقرًا عسكريًا مؤقتًا".

بل عقل العمليات.

هنا تتخذ الأوامر التي ستُترجم لاحقًا إلى قصف، ودمار، وموت.

هنا يُقرّر من سيعيش، ومن سيُمحي.

آدم ابتلع ريقه اليابس.

مدّ يده المرتجفة نحو علبة سردين عثر عليها تحت الغبار، فتحها
بأظافره المتبقية، وأكل لقيمات مالحة كأنها حصى. ثم عاد إلى فتحة
عينه.

لا يمكنه أن ينام. ليس لأن الألم يمنعه... بل لأن الضوء الوهاج
القادم من مركز القيادة لا يسمح للظلام أن يغلق عينيه.

الضوء في الخارج كان مثل سخرية...

يقول له: نحن نتحرك...

ونحن نقرّر...

وأنت؟

أنت تشاهد فقط.

لكنه في قلبه، رغم التعب والجوع والكسور، كان يهمس: "أنا أحفظكم
واحدًا واحدًا... وسأحكي عنكم... إن خرجت حيًّا."

وجه من الداخل

في ظهيرة خانقة، حيث الهواء نفسه بدا مرهقاً من المرور بين الشقوق، سمع آدم صوتاً مختلفاً.

لم يكن صوت جندي، ولا نبرة صراخ، ولا همسات الأوامر.

كان صوتاً ناعماً، واثقاً، يتكلم بلغة عربية واضحة، لكن بتلك النبرة المصطنعة... نبرة من يريد أن يبدو "مهماً" وهو بين أسياده.

اقترب من فتحة عينه.

رأى رجلاً يدخل الفيلا من البوابة الخلفية.

لم يُقيدوه.

لم يصرخوا عليه.

لم يرفعوا السلاح في وجهه كما فعلوا مع الآخرين.

بل فتحوا له الباب، وابتسموا.

آدم ضيق عينيه.

الوجه مألوف.

الرجل كان يلبس قميصاً زيتوني اللون، بنطالاً نظيفاً نسبياً، يحمل كيساً جلدياً بيده.

مشى خطاه الواثقة نحو الداخل، وتبادل السلام مع أحد الضباط كأنهما صديقان قديمان.

مرت دقائق.

ثم خرج الرجل ذاته، وهو يضحك.

ضحكة لا تخطئها العين... تلك الضحكة المرتخية التي تُقال بعد جلسة اتفاق.

ثم رفع يده مشيراً إلى أحد الجنود، وكأنه يُعطيه تلميحا أو توجيهًا.

آدم أدار عينيه داخل رأسه المتعب.

هذا الرجل...

نعم... هو من الحارة.

اسمه... جمال.

كان يسكن في الزاوية المقابلة لبيتهم، في الطابق الأرضي من المبنى الأحمر.

هادئ. لا يُرى كثيراً.

يصلّي الجمعة، لا يشارك في كثير من الحديث، زوجته نادراً ما تُرى، وأولاده يلعبون في الشارع مثل البقية.

كان من النوع الذي تظنه "عادياً"... حتى تراه حيث لا يجب أن يكون.

في المساء، عاد جمال. جلس داخل الساحة، قرب الطاولة الكبيرة التي تنصبها القوات كل مساء لتجميع المعلومات.

فتح حقييته، أخرج منها أوراقًا، جلس معهم.
آدم لم يكن يسمع، لكنه كان يرى كل شيء. خريطة نُشرت أمامهم.
صور فوتوغرافية وُضعت واحدة تلو الأخرى.
ثم رأى جمال يشير بإصبعه إلى صورة معينة. اقترب منها، هز رأسه.
الضابط الكبير رفع حاجبيه، كأن المعلومة مفاجئة. ثم كتب ملاحظة على دفتر صغير.

آدم صرخ في داخله: "من ذاك في الصورة؟ من؟"
لكن وجه الشاب في الصورة كان في الطرف الآخر من الطاولة.
غير مرئي بوضوح.
مرت دقائق من الحوارات الغامضة.
ثم...
جمال أخرج صورة أخرى. رفعها بيده، ولوّح بها مبتسمًا. الضابط ضحك.

ثم همس في أذن الجندي إلى يمينه، فخرج مسرعًا.
آدم بقي شاخصًا.
ثم تسمرت عيناه.

رأى الضابط يفتح حاسوبًا صغيرًا، تظهر عليه صورة واضحة...
وجه الشاب "ضياء".

ذلك الذي سُحل في السابق. ذلك الذي كان آدم يعرفه منذ الطفولة.
جمال أشار إلى صورته، وقال شيئًا... ثم لَوَح بيده إيماءة قاطعة.
آدم فهم.

هو لم يكن يوشي بأحد... هو يحكم عليه.
"ضياء خطر.

ضياء يجب أن يُمحي."
هكذا قال وجه جمال، دون أن ينطق.

في الليل... لم يُرَ ضياء مجددًا.
سُحب من مكانه، ووُضع في مركبة عسكرية صغيرة، وانطلقت به
نحو جهة مجهولة.
جمال لم يودّعه. بل بقي جالسًا يراجع أوراقًا أخرى، مستعدًا لوشاية
جديدة.

آدم لم يعرف حينها ما الذي كان يؤلمه أكثر: ساقه المكسورة؟ أم
رأسه التي لم تعد قادرة على احتواء هذا الكمّ من القذارة؟
لقد رأى العدو قبل ذلك.

رآه يضرب، ويغتصب، ويقصف. لكن الآن...
العدو صار يحمل وجهًا يعرفه.
وجهًا كان يبتسم له صباحًا، ويقول "السلام عليكم" بعد كل صلاة.
آدم أغلق عينه للحظة.
لكنه لم يستطع النوم.
فالخيانة... ضوءٌ أشدَّ وهجًا من كل أنوار مركز القيادة.

* * *

بين الوقت والجوع والذكرى

مرّت الأيام.

أو الشهور؟

آدم لم يعد يعرف.

الوقت فقد ملامحه، تاه في الركام كما تاه جسده بين الحديد والبلاط
والعظام المهشّمة.

كان يقدر الزمن بمرور المناوبات.

كل ست ساعات تقريباً، وجوه جديدة في الفيلا. وجوه ترتدي نفس
الخوذة، وتتكلم نفس اللغة، وتتفتّ نفس العُنف... لكن تختلف في
التفاصيل.

كان يعرف الوجوه الآن.

"القصير العصبي" الذي يصرخ على الجميع.

"الفتاة ذات الجفن المرتجف"، التي تحمل ملفات وتغضّ بصرها كلما
اقترب منها أحد.

و"الضابط الثقيل"، الذي لا يتحرّك كثيراً لكنه حين يتكلم... تحدث
جريمة.

آدم صار خبيراً في حركاتهم.

يعرف متى يتناولون الطعام، متى يتناقشون، متى يُصدرون أوامر .
وفي كل هذا... كان جسده يتآكل.

الجوع لم يكن شعورًا دائمًا. بل كان موجات. تأتي مثل ريح سموم،
تضرب أحشاءه، تحفر في معدته، ثم تختفي. وبعدها يجيء الصداع...
ثم الهلوسة... ثم اللاشيء.

في يوم ما، وبعد أن نفذ الخبز، والبقول أصبح رائحته خائفة، تحسّس
بيده مساحة جديدة خلف الثلاجة المنقلبة جزئيًا.

أدخل ذراعه المرتجفة، وسحب علبة معدنية صغيرة، غطاها التراب.

ضربها على الحائط بلطف حتى انفتح الغطاء.

كانت علبة شوكولاتة قديمة، منسية، نصف ذائبة.

لم تكن صالحة... لكنها حلوة بما يكفي لتمنحه جرعة أمل.

ثم رأى شيئًا فوق الغطاء الداخلي. ورقة صغيرة. مطوية أربع مرات،
ومرسومة بالقلم الرصاص.

فتحها بأصابعه المكسوة بالغبار.

كان فيها قلب صغير، ورسم لوجه ضاحك، وكلمة مكتوبة بخط غير
متقن: "إلى بابا... أنا بحبك، وعشانك خبيتلك هاي." - يوسف
أغلق عينيه.

يوسف... ابنه الأوسط.

سبع سنوات، كثير الأسئلة، كثير الحركة.
هو من كان يفتح علب المعلبات "ليخبّي حجات سرّية".
آدم ابتسم. الابتسامة كانت مؤلمة. شفته الجافة تشققت، ونزف منها
خط صغير من الدم. لكنه ابتسم.
ولأول مرة، منذ القصف، شعر أن له في الخارج شيئاً. أن أحداً ما،
يوماً ما، فكّر فيه بحب.
العلبة لا تطفئ الجوع، لكنها تُشعل الذاكرة.
آدم أكل منها بحذر.
قطعة صغيرة فقط... وترك الباقي.
قال لنفسه: "هذي مش طعام... هذي عهد."
"رح أعيش عشانك يا يوسف... إذا كنت عايش، رح تلاقيني... وإذا
رحت، رح تكون هاي قصتنا."
ثم عاد إلى الفتحة...

عاد إلى الضوء الوهاج، إلى الجنود المتبدّلين، إلى عملاء الداخل...
وعينه أكثر يقظة.
آدم لم يعد فقط عيناً في الركام.
بل صار ذاكرةً حيّة... لا تأكلها الجدران.

باب الحديد المغلق

لم يكن آدم قد سمع صوتًا يشبه هذا من قبل. صرخة مجلجلة،
مبحوحة، تقطعت في الهواء كأنها خرجت من رئتين احترقتا بالنار.

رفع رأسه ببطء نحو الفتحة.

الضوء الوهاج من الفيلا لا يزال يُشعل عينيه، لكنه اعتاد الآن أن
يرى رغم الألم.

ورأى.

شاب في العشرين تقريبًا، عاري الصدر، مربوطة يداه بسلك
بلاستيكي خلف ظهره، يقاد بين جنديين ضخمين. وجهه مدمى، وشفته
السفلى مفتوحة كأنها قطعة لحم معلق.

من خلفه، يجزّ أحدهم كيسًا أسود فيه شيء يتحرك... ربما آخر.

دخلوا إلى الغرفة التي في الجهة اليمنى من الفيلا، تلك التي تُفتح
أبوابها الحديدية الثقيلة مرة كل فترة طويلة، ثم تُغلق دون رجعة.

كانت أبوابًا رمادية قاتمة، لا يُميزها إلا القفل الإلكتروني الصغير
الذي يضيء بالأحمر حين يُغلق.

آدم شهق داخلًا.

منذ قصف المنزل، لم يرَ شيئًا بشعًا بهذا الشكل... حتى القصف
بدا أكثر رحمة من هذه المشاهد الصامتة.

الضباط كانوا يتحدثون العبرية، لكنه من تكرار الاستماع فهم بعض
المفردات:

"איןפורמציה" - معلومات.

"לחץ" - ضغط.

"תחזיל לעבוד עליו" - ابدأ الشغل عليه.

ثم ضحكة.

ضحكة لم تكن ضحكة إنسان، بل صغير وقح من فم لا يعرف
الرحمة.

دخل الأسير، وأغلق الباب وراءه.

آدم بقي يحدّق في الباب المغلق، في الضوء الأحمر الثابت، في
الصمت القاتل.

في داخل جمجمته، دوى صوتٌ كالخنجر: "هذا واحد مثا... من
حارتنا... من غزة."

تخيّل لو كان هو مكانه. ثم تخيّل لو كان ابنه يوسف مكانه. ثم
تخيّل لو أن أحدًا يرى... ولا يفعل شيئًا.

أغمض عينيه.

ثم فتحهما بسرعة.

"أنا شايف"، همس. "شايف... وما بدي أضل حجر". منذ تلك اللحظة، تغيّر شيء في داخله.

لم يكن قادرًا على الحراك، نعم.

لكن قلبه بدأ يُخطط.

عقله بدأ يرسم خطوطًا وهمية على الجدران، يُقسم المكان إلى مربعات.

كم عدد الغرف؟

كم عدد الجنود؟

من أين يخرجون ويدخلون؟

أي أبواب تُفتح صباحًا؟ وأيها مساءً؟

وضع خطة أولى في عقله: "إذا قدرت أطلع من هان، حتى لو زاحف... لازم أعرف كل شيء عنهم."

"وإذا ما قدرت... بكتب بعقلي، بحفر بأظفري، بخليها توصل... بأي شكل."

وفي تلك الليلة، حلم آدم للمرة الأولى. لكنها لم تكن أحلامًا عادية.

بل كانت كوابيس من صراخ ذاك الشاب، ومن ضحكة الضابط، ومن الباب الحديدي... والضوء الأحمر المشتعل.

صوتٌ بلغة أخرى

في ظهيرة اليوم التالي، حين كانت الشمس في أقصى طغيانها،
والضوء المنبعث من الفيلا يعكس جدارًا ناريًا على وجهه... سمع صوتًا
ناعمًا. ليس ناعمًا كصوت أم، ولا كمذيعة في إذاعة الصباح. بل
كصوتٍ يرتجف... رغم أنه يُخفي ذلك.

امرأة.

تتحدث الروسية.

آدم تجمّد.

لم يكن أحد يتحدث الروسية في الأيام الماضية.

كل ما كان يسمعه عبري، أو إنجليزية ركيكة، وأحيانًا صراخ
بالعربية من المعتقلين.

لكن هذه المرة، كانت هناك مترجمة.

Он говорит, что не понимает, за что его " –
"...держат здесь"

"هو يقول إنه لا يفهم لماذا يحتجزونه هنا..."

صوتها متقطع، كأنها تخشى أن تترجم حرفًا خاطئًا.

ثم صوت جندي يرد بالعبري، حادًا.

ثم هي مجددًا:

ньстОни говорят, что у них есть , " –
".доказател не покажут

"يقولون إن لديهم أدلة، لكنهم لن يرووها له."

آدم أكمل الإنصات كأنه ينهل من نهر جديد.

رأى السيدة... كانت شقراء طويلة القامة، ترتدي زياً مدنياً أنيقاً جداً
مقارنة بالفوضى حولها.

تحمل دفترًا صغيرًا في يد، وتكتب فيه بين حين وآخر.

إلى جانبها، رجلٌ ذو بشرة قمحية، ملامحه عربية، لكنه لا يتحدث،
فقط يحدّق في الأرض.

مكبّل، طبعًا.

ورأسه عليه كدمة قديمة، لم تُغسل.

هل هو روسي؟

أم من الشيشان؟

أم من لاجئي أوكرانيا؟

آدم لم يعد يعرف.

المشهد تغير.

الفيلا لم تعد مجرد غرفة عمليات لجيش الاحتلال.

بل شيء أكبر...

مركز عسكري-استخباراتي... دولي؟ مشترك؟ تابع لأي جهة؟

آدم بلع ريقه بصعوبة.

هذه المرة ليس هناك صراخ ولا تعذيب.

لكن ما يحدث أعمق.

"ليش في ناس من جنسيات تانية هان؟"

"وشو بتعمل مترجمة روسية؟"

هز رأسه من خلف الغبار.

"إذا في جنسيات مختلفة... في ملفات مش بس إلنا."

"يعني في شغل كبير... أكبر من حدود غزة."

ورأى من خلف الزجاج رجلاً يرتدي نظارة سوداء، لا يتحرك، فقط يراقب بصمت من الزاوية.

لم يكن مثل الجنود، ولا مثل الضباط.

ربما من الشباباك.

وربما... من جهاز آخر تمامًا.

آدم سجّل ذلك في ذاكرته. وسجّل وجه الرجل، وعيني المرأة، ومكان الكاميرا التي تحرّكت خلفهما كعين صقر.

"الفيلأ هادي... قلب نار، وأنا شايف جؤا النار."

حين يُسحق الورد

ذلك المساء ... لم يكن شبيهاً بأي مساء . الضوء في الفيلا لم يخفّ
كعادته بعد التاسعة ... بل ازداد .

كأنهم يشقّون الليل بأضواء التحقيقات بدل النجوم .
آدم كان مُعلّقاً بين بين ... لا نائم ، ولا مستيقظ . الانقراض تكاد
تطحنه ، لكنه حيّ ... وواعي .

ثم سمع الصراخ . لكن الصراخ هذه المرة ... ليس صراخ رجل .
صوتٌ مبجوح ، متقطع ، يحاول أن يكون صلباً ، لكن الدمع فيه أكثر
من الصراخ .

فتاة .

فتاة تُضرب .

نهض آدم برقبته بصعوبة إلى الفتحة .
وفي زاوية الغرفة البيضاء التي اعتاد رؤيتها ...
كانت هي .

صغيرة ، لا يبدو أنها تجاوزت العشرين .

شعرها ملتصق بجبينها من العرق والدم، يدها مربوطة من الخلف،
ووجهها مائل إلى الأرض.

رجلان يُمسكانها من الكتفين، وثالث يصرخ في وجهها.
كان يطلب منها شيئاً... شيء عن "الشريحة" و"التمرير".

لم يفهم آدم كل شيء، لكن بدا أن الفتاة تُتهم بأنها مررت شريحة
اتصال أو ذاكرة، لشخص ما.

ثم فقدت وعيها.

الجندي التفت سريعاً إلى الباب.

دخلت امرأة، تلبس زياً أبيض، ليست نفس المترجمة.
هذه ممرضة.

أخرجت شيئاً من حقيبتها... حقنت الفتاة، ثم صفعتها على الوجه.
آدم شهق بصوتٍ مسموع.

– "حرام... حرام يا رب... هدول ناس؟ هدول ناس؟!"

لم يعد يقدر على الصمت. الضغط، الحرارة، الدم الذي يقطر من
سقف قلبه.

الفتاة بدأت تتنفس مجدداً. فُتح فمها، ثم أُجبرت على الكلام... لم
يسمع صوتها جيداً، لكنهم لم يعجبهم ما قالت، فصفعها أحدهم مجدداً.

- "لو بقدر أطلع... بس لو مرة وحدة أطلع... لو أطلع..." قالها آدم بصوت مسموع، مبجوح.

فرك عينيه الترابيتين، ثم همس لنفسه:

- "ما في حدا شايفهم غيري... أنا الشاهد الوحيد."

- "أنا الكاميرا الحية، أنا الملف اللي لسه ما اتسكر."

- "يا رب... خليني أضل حيّ بس... بدي أفضحهم... بدي أفضحهم."

وهناك في داخل الغرفة... اقتربت الفتاة من فقدان الوعي مرة ثانية.

وآدم فقد شيئاً في داخله.

شيئاً لم يعد يصلحه سوى... انتقام.

الصوت الذي لا يُسمع

في الليلة التالية... هدأت الأصوات قليلاً. لا صراخ، لا خطوات متعجلة، لا صدى لبوابات تُفتح وتُغلق.

كأن الفيلا تنام على هدوء كاذب، أو كأن الجلادين نالوا قسطاً من "النصر" يكفيهم مؤقتاً.

لكن آدم لم يكن هادئاً.

الصورة ما زالت محفورة في ذهنه: الفتاة، الدم، الإبرة، الصفعة. صار قلبه يطرق صدره كلما لمح ظلاً يتحرك في الفتحة، حتى لو كان مجرد عابر.

لكنه في تلك الليلة سمع شيئاً مختلفاً...

صوت موسيقى خافتة.

رفع رأسه قدر ما تسمح به الأنقاض.

نعم، من جهة الصالة المجاورة لغرفة التحقيق... كان هناك ضوء برتقالي، وشبحُ شاشةٍ متوهجة، وصوتٌ ناعم لآلة وترية تُعزف في الخلفية.

آدم شهق من دهشته.

فيلا تعذيب... فيها موسيقى؟

صوت ضحكةٍ خفيفة قاطع الموسيقى للحظة.

ثم ظهر ضابط شاب، شعره مشعث، يمسك بكأس زجاجي ويشرب.
وبجانبه... العميل الذي رآه من قبل. يتحدثان كصديقين، بلغة عبرية
ممزوجة ببعض العربية.

- "غزة صارت مثل كعكة مفتوحة"، قال العميل ضاحكًا.

- "نحن نعرف كل شيء، قبل أن تعرفه حتى أمهاتهم."

آدم عضّ على شفته.

ظل يراقبهما وهو يهمس لنفسه:

- "بتضحك؟ بتضحك وانت السبب في بكاء أم ضياء؟!..."

- "يا خاين... يا كلب!"

لكن ما لم يكن يتوقعه آدم، أن العميل سيقترّب من النافذة الزجاجية
القريبة من فتحة الأنقاض...

لحظة واحدة فقط، شعّ النور على وجهه بالكامل.

آدم عرفه.

"جودت!"

الاسم خرج من فمه همسًا.

جودت، الذي كان يبيع الأجهزة المستعملة قرب الجامع، ذلك الذي
كثيرًا ما سمعه يسب الاحتلال أمام الزبائن...
جودت، الذي كان يبتسم في وجه الجميع.

ها هو الآن... يحمل كأس النبيذ، ويسخر من كل وجع في المخيم.
أحس آدم أن التراب تحت جسده صار جمرة.
وأن الهواء لم يعد يصل إلى رئتيه.
شيء ما... انفجر فيه، لكنه لم يخرج بعد.
لكنّه خرج بعد لحظات، على شكل دمعة واحدة... حارّة...
جرت على خده الترابي، وسقطت على حجر.
ثم قال: "أنا ما بموت... قبل ما أخليكم كلكم تدفعوا الثمن."

قرار القتل

أشرق صباح رمادي، لا شمس فيه... فقط ضوء صاحب زاحف من بين الغبار المتراكم، كأن الهواء نفسه بات مترددًا في المرور فوق هذه الأرض.

استيقظ آدم من نوم متقطع. كان قد غفا قليلاً بعد أن أرهقه التفكير في الليلة السابقة.

فتح عينه اليمنى، وحدّق بالفتحة كعادته.

الفيلا أمامه...

كالعادة: الإنارة قوية ووهاجة، لا يخفون شيئاً، لا يطفئون شيئاً.

كانهم يقولون للعالم: "نحن هنا، نفعل ما نشاء، ومن يرى... فليحترق."

لكنه اليوم رأى ما لم يتوقعه.

رأى جنديين يجزان شاباً مقنّع الرأس.

قميصه ممزق، وسرواله يغرق بالتراب والدم.

كان يعرج... يسقط... لكنهم لا يتركونه يسقط كاملاً، بل يسحبونه كالخيشة المهترئة إلى غرفة جانبية.

– "وجهه مألوف"، تتمم آدم.

وبعد لحظات، دخل القائد ذاته، طويل القامة، عريض الأكتاف، الذي رأى جريمة الاغتصاب تتم أمامه ولم يحرك ساكناً.

لكن هذه المرة، كان يحمل شيئاً جديداً: علبة حمراء صغيرة.
فتحها أمام الجنديين.

ظهر فيها إبرة طويلة وسرنجة وشفرة صغيرة وبعض الأدوات الطبية.
جلس القائد على الكرسي، ومد ساقه بتراخٍ، ثم أشار إلى الجندي
القصير:

– "ابدأ."

بدأت العملية.

اقتلاع شريحة!

من ذراع الشاب المعتقل.

كانت الشريحة تحت الجلد، مزروعة بتقنية عالية.

آدم عرف وقتها: "هذا واحد من شباب المقاومة... لكن كيف
انزعت فيه شريحة؟"

مرت اللحظة ثقيلة.

الشاب يصرخ... الدم يتطاير... والجندي ينزع قطعة معدنية رمادية
من جسده، ثم يرفعها كمن انتزع قلب عدوه.

– "إحنا قتلنا الفريق اللي معه... بس هادا ظل هارب"، قال الجندي
الآخر.

– "وهل عرفتموا مكانهم من الشريحة؟"

– "بالضبط."

القائد ابتسم. ثم نظر إلى خارطة معلقة على الحائط.

آدم فتح عينيه أكثر.

رأى النقاط الحمراء تتحرّك... رأى واحدًا من الضباط يضع دبوسًا أحمر على بناية صغيرة في الشجاعة.

ثم جاء القرار: "أرسلوا طائرة استطلاع... خلال ساعتين نضرب."

– "مين الهدف؟"

– "اللي كانوا معه... ما ضل منهم غير اثنين."

– "ومتى نعدم هذا؟"

– "خلي الإعدام بعد الغارة... عشان نأكد المعلومة."

آدم عضّ على يده. يعرف تلك المنطقة. يعرف البيت. وسأل نفسه:

– "هل أستطيع أن أفعل شيئاً؟ هل أستطيع تحذيرهم؟"

لكنه بين الركام.

وكل ما بيده... عينٌ ترى، وقلبٌ يحترق.

أغمض عينيه، وتمتم: "لو قدرت أخرج من هان... أول إشي بعمله... إنني أقتل جودت... بإيدي."

حين يتكلم الحطام

استلقى آدم دون حركة، نصفه في العراء ونصفه الآخر مدفون في زوايا مظلمة، لا تكشفها عين ولا ضوء.

الفيلا التي يراقبها، ذلك العالم الآخر الذي يراه ولا يراه، كانت اليوم هادئة بعد ليلة الغارة.

الهدف ضُرب.

والشاب الذي اقتلعت منه الشريحة، أعدم ليلاً، صامتاً، دون طلاقات... خنقه بكيس أسود، كما رأى.

لكن ما هزه اليوم... لم يكن في الفيلا. بل في الحطام الذي ينام فوقه.

صوتٌ ضعيفٌ خرج من تحت البلاط المتشقق...

أنين أولاً... ثم تهدئة... ثم صوت طفل صغير، يهمس:

- "ماما... ماما لا تنامي... أنا جعان... بس ما بدي أكل... بدي تضلك عايشة..."

آدم جحظت عيناه.

هل تخيل؟ هل فقد صوابه؟

ظل ساكناً، أذنه تمسّ الأرض.

ثم سمع مجدداً. صوت امرأة، بالكاد يتردد، تغالب اختناقاً داخلياً:

– "بحبك... ما تترك أخوك... أنا... أنا آسفة..."

ثم صمت.

تلاه بكاء مختنق.

بكى آدم... لأول مرة منذ أيام، بكى بحرقة.

كتم صوته، غرز وجهه في الرمل، لكنه لم يحتمل.

– "في ناس تحت!"

– "طفل وأمه... وعاشين!"

– "بس كيف أساعد؟ كيف أوصل؟"

بدأت أفكاره تتسارع. هل يحفر؟ لا مجال، الصخور فوقه، والإسمنت ثقيل. هل يصرخ؟ سيعرف الجنود أنه حي... وسيموت.

لكنه قرر شيئاً واحداً: لن ينام هذه الليلة. سيسهر على أنفاس الطفل، وسيحصي أنفاس الأم حتى تغيب.

وفي لحظة صمت طويلة، جاء الصوت الأخير:

– "بتعرف... كنت بدي أسميك آدم... زي أبوك... بس اختاروا اسم تاني."

– "آدم... اسمي أنا؟"

ارتجف قلبه.

هل كانت تعرفه؟

هل هي امرأة قابلها من قبل؟

أم أن القدر يتهكّم عليه... فقط؟

لكن الأكيد أن هناك أحياء تحته، تمامًا كما هو حيّ فوق أنقاضهم.

وفي الغرفة الوضاء أمامه، كان الجنود يضحكون، يفتحون علب البيرة، وقيسون على جهاز لوحي كم بقي من "المنازل القابلة للتسوية الكاملة".

آدم شدّ على يده.

- "لازم أعيش... بس مش عشان أنجو... لأ، عشان أرجع وأحاسب".

- "هاي المرة، الصوت جاي من تحتي... مش من فوق".

الضوء الأزرق

الضوء كان هادئاً هذه الليلة. الفيلا منارة كعادتها، تلك الإضاءة الوهاجة التي كانت تؤلمه في عينيه، لكنها أصبحت مألوفة... كجمرٍ في صدره لا يخدم. لكن الليلة، شيءٌ جديد... غريب... يشبه التحضير لحفل ذبح.

شاشة ضخمة نُصبت في قلب مركز القيادة، ظهرت على سطحها خريطة ثلاثية الأبعاد.

ثم انتقل البث إلى صورة حيّة من السماء.

آدم شهق بصمت. كان ذلك مشهداً مباشراً من طائرة مسيّرة. الخيمة ظهرت في منتصف الصورة... خيمة واحدة في أرض ترابية، تحيطها خيام كثيرة.

لكن هذه تحديداً كان عليها إطار أحمر، ونقطة وامضة.

ثم سمع صوتاً عبر مكبر داخلي، بدا آلياً: "تأكيد هوية الهدف..."

ثم صوت رجل، بالعبرية، يرد: "هل يوجد أطفال؟"

- "غير مؤكد. حرارة جسمية واحدة صغيرة الحجم تتحرك."

- "هل تم الإخلاء من الموقع حسب تعليماتنا السابقة؟"

- "تم الإخلاء الجزئي فقط. تبقى البعض. لا يمكن التأكيد."

- (صمت)

- "طيب، نفذ."

آدم شهق مجدداً.

رأى بأمّ عينه الضوء الأزرق يشتعل فجأة في منتصف الشاشة.

لم يكن ضوءاً... كان لهيباً.

الخيمة لم تعد موجودة.

التراب تصاعد كأفعى مذعورة، ثم سكن.

لحظات... ثم عادت الشاشة إلى الخريطة.

"تم التصفية" ظهر على الشاشة.

آدم شدّ على فكيه، وضرب الحائط بقبضته... ثم عاد إلى صمته.

لكنه كان يصرخ داخله: "أطفال! كانوا أطفالاً!" "يا أولاد الكلاب...!"

في الظلام خلفه، صوت الأنين الذي سمعه بالأمس اختفى.

هل مات الطفل؟

هل ماتت الأم؟

أم أن الصدمة خرست كل شيء؟

كان آدم ينزف من راحة يده التي شقّها الحائط... ولم يشعر.

كل ما رآه تلك الليلة، لم يكن مشهد حرب.

كان مشهد مجزرة باردة... تُبثّ بوضوح عالٍ، وبضحكات،
وتوصيف رقمي دقيق.

وفي قلب المجزرة، خيمة.

وخارج المشهد، ناجٍ واحد... مدفون، عاجز، يراقب.

وحين أُطفئت الشاشة، سمع جنديًا يقول بالعبرية: "هاي الطيارة
بتصور أكثر من أفلام نتفليكس... كل شي حيّ، كل شي واقعي."

ضحكوا.

وآدم... بكى دون دموع.

حوار خلف الجدار

كانت الليلة أهدأ من التي سبقتها. لا أصوات طائرات. ولا قصف.
ولا حتى أنين من الجهة الأخرى للحطام. لكن الهدوء لا يعني النجاة.
في مركز القيادة، سُمعت أصوات خطوات.
ثم أصوات أبواب تُفتح وتُغلق.
ثم حديث واضح... ومفصل... وقريب.

آدم التصق بالشقّ الحجري الذي يرى منه مركز القيادة، وفتح أذنيه
كمن يبحث عن اسمه في صف الإعدامات.
- "جبتلك تقرير التحقيق مع الأسرى الجدد."
- "برافو. كم واحد؟"
- "أربعة. ثلاثة شباب و... وحدة."
- "مين؟"
- "واحدة اسمها سلمى. عمرها بحدود العشرين. شكلها طالعة من
مستشفى أو من خيمة نزوح."
- "سلمى؟ سلمى شو؟"
- "مش معروف. ما كانت معها هُوية. بس حسب التحقيق، اسمها
سلمى عوض. من حي الرمال. فقدت كل عيلتها."

آدم شهق بصمت.

سلمى...

عوض...

حي الرمال...

انكمش في مكانه كما لو أن جدارًا داخله سقط فجأة.

كان اسمها الكامل سلمى عوض يوسف.

آخر مرة رآها فيها كانت تودّع أمهم أمام باب البيت، قبل أن يُقصف المنزل في لمح البصر.

ظلّوا شهورًا يظنون أنها استشهدت.

حتى الجيران قالوا: رأيناها تُسحب تحت الأنقاض.

لكنها الآن... تُعتقل؟

يُحقّق معها؟

تُوصف كـ "واحدة من الأسرى الجدد"؟

لم يستطع عقل آدم أن يستوعب.

– "شو وضعها؟ بتحكي؟"

– "عنيدة. بس شكلي راح أفلّت لسانها شوي شوي."

– "كويس. شوف إذا إلها علاقة بمجموعات التسلّل الجديدة."

– "ولا يهمك."

ضحك الضابط.

آدم كان يرتجف.

ليس من الخوف... بل من الصدمة... من ارتباك الأمل.

"أختي... أختي عايشة؟

بين أيديهم؟

بتتغذّب؟

ليش؟ شو عملت؟"

هو تحت الأنقاض، وهي... في فخ الأعداء.

لم يعرف إن كان يريد أن يفرح أم ينكسر.

ثم سمع صوت الباب يُغلق.

وعاد الصمت...

لكن بداخله، قامت القيامة.

أنفاس خلف الفتحات

مرّت ثلاثة أيام منذ سمع اسمها. ثلاث ليالٍ بلا نوم، بلا طعام، بلا حتى دموع.

آدم لم يعد ذاك المذهول الصامت، بل صار كائنًا آخر، عينًا مفتوحة على العدو، وأذنين تتصيدان كل ما يقال. أخته عايشة.

الاسم وحده جعل الهواء في صدره يتغير... كأن قلبه الذي كان قد استقال من الخفقان، عاد يشغل فجأة بشغف الهاربين.

صار يعدّ الجنود الداخلين والخارجين.

يتابع الأبواب التي تُفتح وتُغلق.

يُميّز خطوات من يلبس حذاءً عسكريًا عن من يدخل بنعله المدني.

يحفظ ملامح الضباط، ويراقب النوافذ.

وفي اليوم الثالث... سمعها. لم يراها. لكن سمع أنثى تصرخ.

الصوت جاء من الغرفة الجانبية في الفيلا، من الغرفة ذات الزجاج المعتم.

الصوت جاء عارياً، مجروحاً، حاداً كالسكاكين.

صرخة أولى...

ثم صرخة ثانية...

ثم ضربة.

ثم صوت أنين مقموع.

آدم التصق بالحائط، كمن يريد العبور من خلاله.

عينيه تجمدتا في الشقّ الحجري.

أذناه مفتوحتان حد التمزق.

"سلمى؟ هل هذا صوتك؟ هل ما زلتِ قادرة على الصراخ؟"

سمع أحد الضباط يصرخ بالعبرية: "احكي! احكي! الأسماء!"

– (صوت ضعيف): "ما يعرف... قتلتم ما يعرفش..."

– "كذابة!"

ثم ارتطام آخر.

وصمت.

آدم شعر بدمه يغلي. لم يشعر بهذا الغليان من قبل. لا حين انهار البيت. ولا حين دُفن نصفه تحت الأنقاض.

الغليان الذي شعر به الآن... كان حارقاً.

لو امتلك يداً، لسحق بها الحائط.

لو امتلك سكيناً، لشق بها هذا الجدار.

لو امتلك صوتاً، لصرخ حتى تقجّرت الفيلا.

لكنه لا يملك شيئاً.

إلا عينيه. وعينيه كانتا تتقدان نارًا.

في اليوم التالي، قرر أن لا يظل ساكنًا. إن لم يستطع
إنقاذها... فعلى الأقل، سيحفظ كل شيء.

كل وجه.

كل اسم.

كل رائحة.

كل خطأ ارتكبه.

سيحوّل ذاكرته إلى كاميرا.

سيجعل من عجزه سلاحًا... ومن الألم وقودًا.

ربما... حين يخرج، سيكون شاهدًا لا يُكذّب.

وربما... إن كُتب له الخروج، سيفتح لهم جهنم من جهة لم يتوقعوها

جلسة تحقيق ليلية

في تلك الليلة، لم يكن هناك صراخ. كان السكون غريبًا، ثقيلًا، يقطع أوصال العتمة... رغم الإنارة الوهاجة في مركز القيادة، تلك التي لا تنام، ولا تتعب، وتسلخ ظلال الأشياء عن جدرانها.

آدم ظل ساهرًا.

منذ أن سمع صوتها، لم يعد يعرف معنى للنوم.

أذنه تقيس الأصوات، وعقله يرسم الخريطة.

وفي منتصف الليل... دخل اثنان من الضباط غرفة الاجتماع الكبيرة. ثم تبعهما آخران يجرون شابًا مكبل اليدين ومعصوب العينين.

آدم لم يتعرف عليه فورًا. لكنه أحسّ بشيء مألوف في جسده النحيل، في انحناءة كتفيه، في مشيته المهزوزة.

حين نزعوا العصابة عن عينيه...

شهق آدم داخليًا.

كان حمزة... ابن جيرانهم، وصديق أخيه.

حمزة الذي كان يوزع الخبز على العائلات وقت الحصار.

حمزة الذي اعتُقل قبل شهر، ولم يعرف أحد مصيره.

الضباط جلسوا، وأمامهم أوراق، وحاسوب محمول، وكوب قهوة بلاستيكي.

- "حمزة، أنت بتحب تحكي؟"

- "أنا ما عندي شي... حكيت كل اللي بعرفه."

- "كل شي؟"

ابتسم أحدهم بسخرية، وأخرج صورة من ملفه.

- "طيب... احكي لي عن هاي. هاي الصورة مع مين كنت واقف؟"

حمزة نظر إلى الصورة... تردد... ثم قال:

- "هاد رائد... بس هو استشهد."

- "رائد؟ آه... اللي استشهد... وكيف استشهد؟"

صمت.

وجهه انكمش.

- "فش معلومات. الطيارة ضربته وهو ماشي بالشارع."

- "آه؟ بالشارع؟... إنت عارف إحنا كيف عرفنا مكانه؟"

حمزة لم يجب.

لكن آدم خاف.

خاف من ما سيُقال.

خاف أن يسمع اسمًا يعرفه.

خاف من الحقيقة.

الضابط قال ببطء:

- "صاحبك... مصطفى... هو اللي بلغ عنه. ولما إجبنا نعتقله، كانت أمه تصرخ وتدعي علينا... وهو كان عم يبكي زي الأطفال."

آدم شعر بدم بارد يسري في عروقه.

مصطفى؟

اللي كان يصليّ معهم؟

اللي ضحك قبل الحرب بأيام وقال: "الله لا يجيبها حرب ثانية؟"

الضابط استدار نحو حمزة: "انت بدك تصوير زي مصطفى؟ ولا بدك تعيش؟"

- "أنا ما بخون."

قالها حمزة، بصوت خافت لكنه واضح.

صفعة.

ثم صفعة أخرى.

آدم كاد يصرخ.

لكنه لم يتحرك.

جلسة التحقيق استمرت ساعة... ثم خرجوا بحمزة.

لا هو ميت، ولا هو حي.

في اليوم التالي، عاد نفس الضابط.

جلس مكانه المعتاد.

رفع كوب القهوة، وتنهّد قائلاً: "الناس بدها تعيش... واللي ما بي فهم،
بنخلي التراب يغطيه."

آدم سمعها.

وحفرها في قلبه.

الصوت القادم من تحت الأرض

في ظهيرة اليوم التالي، كانت الشمس تضرب جدران الفيلا القريبة وتصبُّ حرارتها على النوافذ الزجاجية الكبيرة لمركز القيادة. الإنارة في الداخل لا تزال وهاجة، لكن وجه الضابط الكبير بدا شاحبًا... كأن ليل البارحة أثقل كتفيه.

آدم، في ركنه المظلم خلف كومة الركام، لم يغمض له جفن. كلما حاول أن يغلق عينيه، عاد وجه حمزة أمامه، مشوّهاً ومعلّقًا بين الصفعة والخذلان.

وفجأة...

اهتز شيء في الجدار تحته.

اهتز فعلًا... وليس من القصف.

كان الصوت ناعمًا، خافتًا، كأن أحدًا يطرق بحذر من الجهة الأخرى.

مرة...

اثنان...

ثلاث.

آدم ظن أنه يتوهّم.

مدّ أذنه حتى التصق رأسه بالأرض.

الصوت يتكرر ... كأنه شفرة. ثلاث طرقات، توقف، ثم اثنتان، ثم أربع.

نبض آدم تسارع.

أهو زلزال صغير؟ أم قصف بعيد؟ أم أن أحدهم... يعيش تحت هذا الخراب؟!

صرخ آدم همساً، بشفتيه الجافتين: "في حدا؟!... في حدا هناك؟" لم يجب أحد.

لكن الطرق عاد.

هذه المرة كان أوضح.

كأن شيئاً... أو شخصاً... يتسلل عبر المجاري القديمة، عبر بقايا أنابيب الصرف أو أنفاق الملاجئ القديمة التي بُنيت تحت بعض البيوت أيام الحروب السابقة.

آدم النقط قطعة حديد صغيرة بجانبه، وبدأ يضرب بها الركن القريب من الأرض بثلاث طرقات. ثم توقف. ثم اثنتين.

ردّ الصوت من الجهة الأخرى بالمثل.

إنه إنسان. حي. يرد عليه.

صرخ آدم، كأنما يُخرج كل ما فيه:

- "أنا هان!... مصاب... محشور... في بيت قرب فيلا فيها احتلال..."

الصوت توقف للحظة... ثم عاد الطرق.
لكن هذه المرة... كان الطرق أسرع، مرتبًا... وكأن الطارق أصابه
الهلح.
ثم سمع صوتًا مكتومًا جدًا... كأن أحدهم يتمتم: "اهدأ... في فوقك
عيون."

صوت عربي. واضح.
لكن بالكاد يُسمع.
آدم بلع ريقه.
وشهق دهشة.
هل هم مقاومون؟
هل هناك من يتسلل تحت الأرض الآن؟
هل أحد ما يعرف بوجوده...؟
في تلك اللحظة، شعر آدم بأنه لم يعد وحيدًا.
العالم كله لم يتغير، لكن شيئًا في قلبه بدأ يعود للحياة.

همسات الأنفاق

في تلك الليلة، لم ينم آدم. كان صوته الداخلي يضح بأسئلة لا يمكن إسكاتها: من هذا الذي يتكلم من تحت الأرض؟

- هل هم مقاومون فعلاً؟

- وهل يعرفون أنه يرى مركز القيادة الإسرائيلي من فتحته؟

- هل سيتركونه؟ أم سيحاولون إخراجهم؟ أم... سيتخلصون منه خشية انكشافهم؟

المكان من حوله كان ساكناً، حتى الفئران لم تتحرك هذه الليلة. الإنارة في مركز القيادة ما زالت تسطع في كل الاتجاهات، متوهجة فوق رؤوس الضباط والمجندين الذين لا ينامون. وكان أحدهم يدور حول نفسه بغضب، يبدو أنهم فقدوا السيطرة على أمرٍ ما.

فجأة...

عاد الصوت.

من تحت الأرض.

هادئاً، لكنه مباشر هذه المرة.

- "آدم... آدم... اسمعني."

شهق آدم، ثم ضغط صدره ليكتم صوت أنفاسه.

أحدهم يناديه باسمه.

هل يعرفه؟ هل عرفوا مكانه؟ هل هذا كمين؟ أم أملٌ حقيقي؟

اقترب أكثر من الأرض، همس بذهول: "أنا هان... مين إنت؟"

الصوت أجابه: "إحنا من الكتيبة الثالثة... رصدنا إشارات من مكانك. حدا من جماعتنا شافك تتحرك تحت الردم لما مرّ قبل أيام..."

آدم انتفض.

"جماعتنا؟"

هل يعني أنهم من المقاومة فعلاً؟

– "شو شايف من عندك؟"

سأله الصوت.

آدم بلع ريقه. ثم ردّ بثبات:

– "فيلا كبيرة... مليانة ضباط... كل يوم بيحبوا أسرى... سمعت

خطط... شفت وجوه... شفت عملاء..."

ثم همس بشيء لم يقله من قبل، حتى لنفسه:

– "أنا صرت أعرف تفاصيل... أسماء... أوقات نقل الأسرى..."

وكل إشي."

ساد صمت.

ثم ردّ الصوت من تحت الأرض، بنبرة متوترة: "إذا اللي بتحكيه
صح... إحنا محتاجينك."

آدم ارتجف.

- "محتاجيني؟"

- "آه... إنت صرت عيّنًا. وبكرة بدنا نفتحك ممر صغير... بدنا
نوصلك مي... ويمكن جهاز صغير... بس ممنوع تطلع ولا تتهور.
إنت صرت أخطر من عشر بنادق."

آدم جلس مذهولًا.

أخطر من عشر بنادق.

الكلمة ظلت ترنّ في رأسه، وهو يتخيل نفسه مرة أولى ليس مجرد
ضحية، بل جنديًا ساكنًا، عيّنًا ترصد، شهقة مقاومة من تحت الركाम.
وقبل أن يرحل الصوت، تمتم: "اثبت... لا تخاف... إحنا جايين."

الممر الخفي

كان آدم يراقب عقارب الساعة في الظلام. الضوء الوهاج ما زال يتسلل من مركز القيادة، وصرخات الأسرى لم تهدأ. لكنه لم يكن كما كان.

هذه الليلة، كان له شريك. بل كتيبة. بل وطن صغير يتحرك تحته، يزحف كالعروق في جسد الصخر.
وفجأة، شعر بها.

الاهتزازات.

ليست زلزالية، بل خفيفة، دقيقة، كأن الأرض تتنفس.
اقترب من الزاوية التي فيها الشقّ.
ثم... سمع الصوت.

– "آدم... افتح إذنك..."

من تحت الركाम، بين الباطون والحديد، خرجت أداة معدنية صغيرة، كأنها أنبوب ماء قديم مهترئ. لكن ما لبث أن سمع خريراً خفيفاً...
ماء!

شهق وهو يمدّ يده، وبلل شفتيه، ثم شرب بتوتر.

أول جرعة ماء حقيقية منذ أيام!

ثم نزلت معه قطعة صغيرة مغلفة بالبلاستيك الأسود...

جهاز .

هاتف؟ لا .

جهاز تنصت .

مع لاقط حساس وسماعة أذن .

مرق معه ورقة مشدودة بخيط كتب فيها بخط صغير :

"حط السماعة، وإذا شفت شي مهم... اضغط الزر مرة وحده."

دمعت عينا آدم .

لم يكن يتخيل أن اللحظة ستأتي .

أن يشعر بأنه ما عاد وحيداً .

أن هناك أناساً تحت الأرض يقاتلون لا بالسلاح فقط، بل بالصبر
والمخاطرة والخُطة .

ركب السماعة، فسمع صوتاً جديداً: "إحنا سامعينك، وكل كلمة
بتحكيها بتوصل."

آدم همس: "في ضابط جديد دخل الفيلا... طويل... شعره أشقر...
وعنده ملف أحمر."

سُجّلت المعلومة .

في ذات الوقت، على شاشة سوداء في مكان آخر، كانت تظهر
نقاط حرارية حمراء تتحرك داخل الفيلا.

المقاومة بدأت تشكل خريطة فيلا العدو من الداخل.
واحد من مئة اختراق... بدأه شاب تحت الركाम، لا يملك إلا عينيه
وضميره وصبره.

.

.

الفضيحة

لم يكن في حسابان آدم أن يرى ما رأى تلك الليلة. كل شيء كان عاديًا نسبيًا: ضوء الفيلا، أصوات صراخ الأسرى، دخول وخروج الضباط والجنود... لكن الساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، وحدث ما لم يتوقعه.

ضوء أبيض فاضح ملأ إحدى الغرف الزجاجية الجانبية. ثم دخل الضابط الأشقر - الذي صار آدم يلقيه بينه وبين نفسه بـ "الملف الأحمر" - وهو يضحك، ويمسك بيده جنديّة صغيرة الحجم، تضحك معه.

سحبها من خصرها، وأغلق الباب. في لحظة، تحوّلت الغرفة العسكرية إلى ما يشبه غرفة فندق. رماها على الطاولة التي وُضعت فوقها خرائط غزة، وبدأ يهمس في أذنها كلامًا لم يسمعه آدم، لكنه رأى انعكاسه في ملامحها. آدم تراجع ببطء إلى ركنه، ورفع الجهاز الأسود الصغير. ضغط الزر، لتبدأ التسجيلات. لم يكن الأمر فقط مشهدًا عبثيًا فاجرًا في وسط الحرب... بل كان يجري فوق خرائط عمليات القتل، وفوق أسماء الأسرى. عينا آدم كانتا تتقدان بالغضب، لكن بداخله، شيء آخر تحرّك: "هذه فضيحة... وهذه يمكن أن تكون سلاحًا."

في الجانب الآخر من الأنبوب، التقطت المقاومة الصوت.

ثَبَّتُوا التردد، سَجَلُوهُ، وبدأت التحليلات.

"الملف الأحمر" كان من الشخصيات غير المعروفة ميدانياً... والآن صار يُعرَف اسمه، وعلاقته بالجندية، وتوقيتها، وموقعه داخل المركز بدقة.

صوت أحد ضباط المقاومة جاء بعد ساعات عبر السماعة: "آدم... برافو... إحنا راح نستخدم هالمعلومة."

آدم لم يجب، فقط أغلق عينيه، وسقطت دمعة جديدة.

كانت فيلا العدو تُحترق، دون أن يعرف أحد أن الذي يُسقط جدرانها... مدفون تحتها.

ارتجاج الأرض

كانت ليلة ثقيلة، رطبة، والصمت فيها يقطعه فقط صوت مولد كهربائي بعيد.

آدم كان قد اعتاد على جدران قبره الذي لا قبر له.

كل شيء ساكن... حتى صراخ المعتقلين خفت مؤخرًا، وكأن الرعب صار داخليًا، لا يُسمع.

وفجأة...

دويّ مزلزل.

اهتزت الأرض تحته، بعنف، وتبعته رجة مديدة.

تساقط بعض التراب فوقه، وتفككت قطعة إسمنتية من طرف الحفرة، واصطدمت بكتفه.

تكوّر على نفسه، وتخيل أنها اللحظة الأخيرة... لكنه ما زال حيًا.

الغبار ملأ الهواء، وبدأ يسمع صراخًا قادمًا من الفيلا: "إيش صار؟!"

- "مين ضرب؟!"

- "الردار مش رادد!"

- "في تسريب؟!"

أصوات الجنود والضباط اختلطت، وبدأت الأجهزة تُحمل، تُنقل، تُعاد برمجتها.

كل شيء داخل مركز القيادة بدا كأنه فُضح فجأة.

آدم تنفّس بصعوبة... كانت هذه أول مرة منذ عشرين يومًا يشعر أن الطرف الآخر بدأ يقترب.

هل كانت غارة عشوائية؟ أم أنهم استشعروا شيئًا؟

هل هم يعرفون أن هذا البيت فيه مركز؟

هل اقتربت النهاية؟

في عتمة الغرفة المنهارة، سمع أحد الضباط يصرخ: "احكوا مع الشاباك... بسرعة! بدنا تحليل فوري! كيف قدروا يضربوا هيك؟"

وفي الجهة الأخرى، كان صوت المقاومة، هادئًا واثقًا، يقول عبر السماعة الصغيرة:

– "إحنا بس بلّشنا... الرسائل وصلت."

آدم ابتسم، رغم الألم.

لأول مرة منذ سقط عليه سقف بيته... شعر أن السقف الذي فوق رؤوسهم بدأ يتشقق هو الآخر.

نملة تتقدم نحو الضوء

في صباح ذلك اليوم، كان الصمت كثيفاً لدرجة أن آدم سمع صوت أنفاسه بوضوح، مختلطاً يرجع صداه في الفتحة الضيقة.

لا صراخ. لا اعتقالات. حتى العساكر في الفيلا بدوا وكأنهم يلتقطون أنفاسهم بعد الغارة.

لكنه لاحظ شيئاً جديداً...

كان هناك شعاع رفيع، لم يكن هناك من قبل، يتسلل من شرخ حديث في الجدار المائل. الضوء لم يكن ساطعاً، لكنه خيط ذهبٍ حيٍّ وسط كل هذا الركام.

وتحت ذلك الخيط، رأى شيئاً يتحرك.

نملة.

نملة واحدة، صغيرة، تسير على حافة مائلة، وتتوقف كل لحظة كأنها تتحسس الطريق، ثم تكمل الزحف.

آدم شهق همساً: "أنت كمان عايشة؟"

تابعها بعينين متسعيتين.

كانت تتقدم نحو الضوء.

مرّت فوق حواف خشنة من الإسمنت، ثم انزلت قليلاً، ووقفت، ثم تابعت.

لحظة بعد لحظة، وصلت إلى الخط المضيء... وتسلمت نحوه.

ثم... اختفت في النور .
آدم بقي ساكنًا لدقائق. ثم ابتسم.
شيء ما في داخله تغير .
لم تعد الحياة شيئًا يُنتظر نهايته.
بل شيئًا يمكن أن يُطارد، حتى في عز الحصار.
ربما سيموت غدًا. وربما لا.
لكن هناك فتحة، وهناك ضوء، وهناك طريق... وهناك حياة ممكنة.
همس: "راح أطلع... مش اليوم، بس راح أطلع."

كانهم لا يرونه

في ظهرية خائفة من تموز، لم يكن في المكان سوى هذا الصمت الكاذب.

أصوات الطائرات هدأت، ورائحة الغبار والدم ما زالت عالقة في كل نفس.

آدم أزاح جزءًا صغيرًا من التراب المتراكم حول فتحة مراقبته، فجاءه المشهد الأوضح منذ أيام.

الساحة الخلفية للفيلا مكشوفة أكثر.

وللمرة الأولى، رأى المسيح.

مسيح أزرق كبير، مياهه هادئة، نظيفة، كأنها لم تشهد قطرة دم.

وبجانبه... جندي يضحك، يرمي قميصه، ويقفز إلى الماء.

ثم يظهر آخرون. خمسة، ستة، وربما أكثر.

يمشون بلا خوذ، بلا خوف.

يركل أحدهم كرة صغيرة باتجاه زميله، يضحكان.

جندي آخر جالس على كرسي بلاستيكي، يفتح زجاجة بيرة، ويشربها بنهم.

ثم... يلتقط هاتفه، ويُجري مكالمة فيديو، وهو يلوح: "هاي إيما! شوفي! شايفيني؟ في مسيح بغزة!"

ضحكات متداخلة.

على الطرف الآخر من الساحة، قرب المدخل الجانبي، كان هناك شيء مغطى بلحاف رمادي... وبعد دقائق، حين زحف الضوء نحوه، أدرك آدم أنه جسد.

جثة شهيد، مكشوفة الوجه، والدم قد جف على خده.
أحد الجنود جلس قرب الجثة، وضع بندقيته على ركبته، والتقط "سيلفي".

ثم نهض، ركل الجسد، ومضى.

آدم لم يبك. لم يصرخ.

لكن شيئاً داخله احترق ببطء.

كانهم لا يرونه.

كأن العالم كله لا يراهم.

لكن هو... يراهم.

وها هو يحفظ الوجوه.

يحفظ الضحكات.

يحفظ الجثة المغطاة بالعار.

النقطة الحاسمة

آدم لم يعد يقيم فرقاً بين الليل والنهار. كل شيء في محيطه أصبح ضبابياً، لا حواف له.

كان الضوء يتسرب من خلال الشقوق في الجدار، يغسل الزوايا وينثر الغبار فوق الحطام.

لكن هذه المرة، كان يختلف.

الفيلا القريبة التي يراقبها، كانت تهتز.

ليس بفعل القصف. بل بسبب شيء آخر. شيء يخرج من مركز القيادة في محيطه.

أصوات خطوات. أصوات غضب وضوضاء تأتي من أسفل.

جنود يصرخون، يقفون على أطراف أصابعهم، ثم يركضون بسرعة.

آدم ركز سمعه، ثم اقترب أكثر من الشق.

ثم... سمعه.

- "الجهاز مش ما بيشغل! الاتصال انقطع! شو اللي بيصير؟"

- "إيش حصل؟! الطوارئ عندنا ما بتشتغل!"

- "أرسلوا فرق للبحث. بدي كل واحد يعيد فحص البوابة. احتمال في تهديد داخل المكان."

آدم خفق قلبه.

التوتر في المكان بدأ يتسارع.

شيء ما يحدث.

شيء مهم.

نظرت عيناه عبر الفتحة، وعقله بدأ يعمل بسرعة.

هل بدأ الهجوم الذي طالما انتظرتَه المقاومة؟ هل هذه هي اللحظة الحاسمة؟

صوت ضابط في مركز القيادة كان يصرخ الآن: "خلاص، انتهينا! خليهم يركضوا لفوق. النوافذ مغلقة؟"

– "نعم، كل النوافذ مغلقة."

– "طيب، ماشي. إذا في حدا جَوّا، لازم نعرفه!"

آدم شعر بأن اللحظة قد اقتربت.

في تلك اللحظة، كان لديه خيار: هل يبقى ساكنًا ويشاهد، أم هل يتصرف الآن ليكون جزءًا من التغيير؟

أصابعه تحركت على الجهاز الذي كان يملكه.

ضغط الزر، ثم أوقفه.

ثم ضغطه مرة أخرى.

التغيير كان قد بدأ.

الرصاصة التي لا تصيب

آدم جثا على ركبتيه، يده تنزلق على الحافة الموحلة للممر. كانت الأصوات داخل مركز القيادة تزداد فوضى، وكأن الجنود باتوا في حالة جنون.

"ما فيش وقت... الوقت كان يسير كالحلم الثقيل.

حرك قدمه بلطف داخل الممر الضيق، وصوته يتردد داخل الأنابيب تحت الأرض.

تلك الأنابيب، التي كانت تعرف كل تفاصيله.

هكذا كان يشعر، وكأنها شريكة له في هذه المغامرة الصغيرة.

كان يعلم أن هناك خطراً في تحركه الآن.

وإن كان لا يستطيع الهروب بنفسه، فقد قرر أن يخلق فرصة للآخرين.

لحظة الفرصة.

ثم وقع صوته عبر السماعه.

– "هيا، عندك خمس دقائق. النفق جاهز. استعد، الحركة ستبدأ الآن."

قال الصوت بصوت رقيق، لكن كان فيه قوة لا تُخطئ.

آدم نظرت عيناه نحو الحافة الرفيعة التي تفصل بينه وبين الفضاء الخارجي.

المقاومة، كانت تحضر ضربتها الكبيرة.
كان يعلم أنهم قريبون.
قريبون جدًا.
وفجأة...
دوي الانفجار.
آدم لم يشعر بالجسد.
كل شيء حوله اهتز بشدة.
صوت الانفجار كان مرعبًا، ثم انقشع الصوت بسرعة.
جدران الفيلا أصبحت تهتز، والجنود يركضون الآن في اتجاه غير
معلوم.
لكنه كان يعلم أن هذه هي لحظة الحقيقة.
المكان الذي يراقبه، أصبح الآن في مرمى النيران.
شعر بهبوط. شعور قوي، وكأن الأرض أصبحت حرة أكثر.
لكن في نفس اللحظة، شعر بشيء آخر... كان لديه فرصة.
لكن هذه المرة، كانت الرصاصة التي تمر فوق رأسه، لا تصيبه.
كان يتنفس ببطء، يتأمل ما سيحدث بعد.
لا مجال للتراجع.

في قلب النار

صوت القصف الأخير لم يكن كأى صوت مرّ على آدم.

لم يكن مجرد انفجار.

بل صرخة انتقام عميقة، تحفر في الهواء.

فتح عينيه.

الضوء كان مختلفاً.

لم تعد الأضواء في مركز القيادة وهاجة فقط...

بل مضطربة، متكسرة، خافتة أحياناً، متوهجة أحياناً أخرى، كما لو
أن الكهرباء نفسها ترتجف.

من خلال الثقب في الجدار، رأى ما لم يتوقعه يوماً.

الجنرال ذو الشعر الأبيض يسعل بشدة، وجهه مغطى بالرماد،
وخلفه أحد الضباط يسحب سلاحاً ويصرخ بلغة لا يفهمها آدم، لكنها
محمّلة بالخوف.

صوت الطائرات لا يتوقف، لكن هذه المرة لم تكن طائراتهم.

كان القصف من الداخل.

من الأرض.

من المقاومة.

في زاوية الغرفة المحطمة، سقطت شاشة كبيرة، تتدلى منها أسلاك مقطوعة، ورأى عليها قبل أن تطفأ نهائياً خريطة كاملة لغزة، محاطة بدوائر حمراء...

ودائرة خضراء واحدة. "أنا... في قلبها."

همس آدم لنفسه، وقد اكتشف أن موقع الفيلا لم يكن عشوائياً. كان مركز التحكم في المنطقة كلها.

لكن لحظة التأمل لم تدم.

أحد الجنود اقترب من نقطة الرؤية، عينيهِ دامتان، يحمل مصاباً فوق ظهره، ويصرخ على الآخرين ليحملوا الأجهزة و"الصندوق الأسود".

آدم تمسك بالحائط، جسده الممزق بالكاد يحتمل الضغط.

سمع أحدهم يصرخ: "سيدي، المقاومة دخلت الحي. إنهم ليسوا وحدهم، هناك سكان يحمونهم!"

ضحك بصمت.

هذا هو الشعب.

من حفرة ترابه، رأى بعينه بداية النهاية.

وفي لحظة، دوى انفجار آخر، أكبر من سابقه.

الركام اهتز، وثقب الجدار اتسع قليلاً... الهواء النقي تسلل منه كنسمة خجولة.

"إنها تبدأ..."

قالها، وكأنه يستعد لشيء أكبر من النجاة.

صوت أقدام على السطح

لم يكن الصوت عادياً. في العادة، كان السكون مخيمًا بين القصف والقصف، لا يُسمع إلا أنين حديد أو صراخ موجات الراديو من داخل الفيلا القريبة، أو وقع جزمة عسكرية لا تخطئها أذنه.

لكن هذه المرة... كان وقع الأقدام مختلفًا. ناعمة، مترددة، خفيفة. تمر فوق السقف المهدم، ثم تتوقف فجأة.

وكان صاحبها أدرك أنه يسير على شيء ما... شيء قد يكون جثة... أو نَفْسًا حيًا تحت الأنقاض.

آدم شهق بصوت مكتوم.

مدّ رقبتة، وحشر عينه في النقب.

الفيلا ما زالت على حالها... محترقة، مشققة، يغطيها دخان كثيف.

لكن الصوت هذه المرة لم يأت من هناك.

بل من فوقه هو.

هل من المعقول؟!

هل بعد كل هذه الشهور... كل هذا الموت...

أن يخطو بشرٌ فوق رأسه من جديد؟

هل اقترب أحدهم فعلاً؟ "في حدا هان؟!"

جاء الصوت ضعيفًا... شابًا... فلسطينيًا!

كاد آدم يصرخ. لكنه خاف. إن كان مقاومًا ... سينقذه.
وإن لم يكن؟ وإن كان جاسوسًا يتحدث باللهجة نفسها؟
وإن سمعه جنود ما زالوا يختبئون في الفيلا؟
صمته كان أمانه الوحيد.
لكن الصوت عاد: "يا إخوان، في ريحة... ريحة عرق بشري. في
حدا حي تحت الركाम؟"
كانت الرائحة قد خذلته أخيرًا.
الجسد لا يكذب.
خطوات أخرى اقتربت، هذه أثقل، يبدو أن أحدهم يرتدي حذاءً
ميدانيًا.
ثم سمع صوت قعقعة...
سلاح يُعدّ...
ويد تطرق برفق على الأنقاض.
- "لو فيك تحكي... إحكي! إحنا فلسطينيين... مش جيش. إحنا من
الداخل."
هنا، بكى آدم.
لم يحتمل.

طرق على ما بقي من بلاطة تحته بقبضته العارية، مرتين...
ثلاث... أربع.

صمت...

ثم سمعها:

"سمعتوا؟! في حدا تحت!"

- "احكوا مع الشباب يجيبوا المجرفة والسماعة!"

عاد الضوء إلى صدره.

ليست الإنارة الوهاجة التي اعتاد رؤيتها من الفيلا...

بل ضوء داخلي... كأن القلب نفسه اشتعل.

الخلاص... قد بدأ.

من تحت التراب

– "آدم! اسمك آدم صح؟! إحنا سامعينك يا أخي!"

النداء جاء من السماء... نعم، السماء.

آدم لم يرها منذ شهور.

كل ما فوقه كان طبقات من الإسمنت والحديد والتراب.

لكنه الآن يسمع من خلالها... وكأنها تتناديه باسمه الأول، كما كانت أمه تفعل في طفولته.

– "ثبّت حالك... ما تتحرك! قربنا منك كثير!"

كان الصوت رجوليًا، خشنًا، لكنه يقطر حنانًا.

آدم همس: "أنا هان... تحت الدرج... ما تحفروا من فوقي، في بلاطة كبيرة راح تطيح عليّ...!"

انتبه الشاب في الأعلى.

– "سمعتوه؟ تحت الدرج! يا سلام عليك يا بطل، ثبتنا المحور. يا جماعة، ركزوا هان!"

ثم، كأن الأصوات كلها تكاثرت: مجارف... كشافات... لهاث متقطع... أصوات أقدام تتبدل كل دقيقة.

يد تعمل ويد ترتجف، ورأس يتلفت كل لحظة نحو الفيلا المجاورة خشية أن تطلق النار من جديد.

لكنهم لم يتراجعوا.

كلما اقتربوا من صوته، كلما علا الحماس.

– "آدم! طمني... إنت سامعنا؟!"

– "آه... سامع... بس... بسرعة... الصوت جَوّ الفيلا بيزيد."

– "شو فيه؟ شو سامع؟"

– "جنود... حركتهم مش طبيعية... كأنهم بيستعدوا... أو بيعرفوا
إنكم هان."

هنا تغيرت النبذة فوقه.

– "جاهزين لكل احتمال... نخلصه بسرعة، ونسحب!"

لحظة...

لحظة تساوي حياة.

كان آدم يتخيلهم، يحفرون بين الحديد والأسلاك، يخاطرون برقابهم
من أجله.

كان يتنفس بصعوبة.

لكنها كانت أنفاسًا مختلفة... ليست كأنفاس من يقاوم الموت، بل
كأنفاس من يشتم الحياة لأول مرة.

– "آدم، قربنا كثير. راح نوصلك خلال نص ساعة إذا ما صار
إشي..."

آدم أغلق عينيه.

حاول أن لا يتذكر شيئاً... لا بيته الذي دُفن فيه، ولا جسد أمه الذي
سُحب من تحته، ولا أصابع أخيه الصغير التي لم تعد تتحرك حين
ناداه.

كان يريد فقط أن ينجو.

يريد أن يخرج ليقول شيئاً واحداً:

أنا ما متت... ولسه شايف كل إشي.

.

صوت الخوف وصوت الوطن

كانوا قد اقتربوا...

قريبين جدًا.

آدم شعر بأن حرارة أيديهم تلامس جدران قبره.

شم رائحة العرق الطازج... وسمع لعنات تُلقى على إسمنت لا يلين.

لكن في اللحظة نفسها...

انقلب كل شيء.

صرخ جندي إسرائيلي من داخل الفيلا: - "הם התחילו! הם שם!
(لقد بدأوا! إنهم هناك!)"

حركة وضوضاء... ركض واحتكاك بنادق... وصراخ... وأوامر
متقاطعة باللغة العبرية:

- "أغلق الأبواب!"

- "الرد بسرعة!"

- "أين القائد؟!"

- "من أطلق أولاً؟!"

آدم شهق. ما الذي يحدث؟

كان يشاهد الظلال تتراكض في الطابق المقابل... جنود يفقدون توازنهم، وشخص يرتجف وهو يحمل هاتفًا ملتصقًا بأذنه.

ثم، فجأة، سُمع صوت انفجار بعيد... انفجار لم يكن قريبًا بما يكفي ليصيبهم... لكن قريبًا بما يكفي ليُربك الجميع.

صرخ الشاب الذي يحفر فوق آدم: "شو صار؟!"

ورد عليه آخر من جهة أعلى: "المركز الإسرائيلي انخبط، شكله في هجوم عليهم بمنطقة ثانية... أو في شي كبير صار!"

فجأة خيم الصمت لثوانٍ... ثم، استأنف الحفر. لكن هذه المرة، بحذر... بتوتر.

آدم، من جهته، لم يتحرك.

لكن قلبه كان يقفز في صدره.

فكر للحظة... ماذا لو انتهت هذه الفرصة بسبب هجوم آخر؟

هل يكرهه القدر إلى هذا الحد؟

ثم عاد الصوت.

كان الصوت الذي تمنّاه آدم دومًا... صوت فلسطيني... لكن هذه المرة، كان مشوبًا بالخوف.

- "آدم! بدنا نكمل بس بدنا نعرف شو بصير جوّا الفيلا... إذا قربوا عليك أو شكّوا فيك... إحكي بسرعة."

آدم نظر من الفتحة.

الفيلا التي كانت قبل ساعة منظمة وباردة ومضيئة... تحولت إلى
كومة من الذعر.

ضابطٌ كان يصرخ باتجاه الشاشة.

عسكريان يحاولان الاتصال بالقيادة العليا ولا ينجحان.

جندي يفتح الحقيبة، يخرج منها أشرطة رمادية تشبه المتفجرات...
وآخر يغلق النوافذ بسرعة.

آدم قال بصوت خافت، لكنه ثابت:

- "الوضع عندهم مرعوب... شكلهم فاكرين إنه في عملية كبيرة
برا... مهووسين... بس لسه ما حد انتبه لجهتكم."

- "تمام... منك نكمل. بس إحكي أي حركة مش طبيعية. حياتنا
وحياتك مرتبطة ببعض."

آدم ابتسم لأول مرة منذ زمن.

صوته صار له قيمة.

عيناه ليستا عالقتين فقط في الجدران، بل صارتا عيونًا لفلسطين.

الجسر الخفي بين آدم والمقاومة

الفيلا في الجهة المقابلة لم تعد مجرد مبنى محاط بالإضاءة... لقد تحولت إلى خلية مرتعشة... جهاز قلب مصاب بالخوف... والعيون فيه كأنها تخشى الضوء الذي كانت تفاخر به قبل ساعة.

آدم، بثيابه الممزقة وجسده المحصور بين الخرسانة، تحوّل إلى مرآة تعكس ارتباكهم.

لكن شيئاً فيه تغيّر... كأن يؤسه صار ميزة. كأن عجزه تحول إلى عين مفتوحة على قلب العدو.

في طرف الفتحة الصغيرة، وضع أذنه، ثم قال همساً عبر السلك:
- "أربعة... واقفين... جنب الطاولة الطويلة... فيه حزام أسود وورق."

الرد جاء فوراً: "هاي غرفة العمليات الداخلية. تابع."
آدم تابع: "الجندي اللي كان حامل الحقيبة رجع سكرها... شكله لغى تنفيذ شي."

- "سجلنا."

سكت لحظة.

كان يسمع أنفاسهم.

ليس فقط من الجهة المقابلة... بل أنفاس من هم فوقه أيضًا.
من الجدار التراي المائل، همس صوت خافت من الخارج: "آدم...
انتبه... بس قول لو أحد طلع على السطح."
آدم مد عنقه ما أمكن، فتح عينه اليمنى أكثر، وتفحص الأضواء
من الطابق العلوي.
ثم قال بثبات: "فيه اثنين طلعاو الدرج... بس ما في سلاح واضح
بأيديهم... في واحد ماسك ورقة بيده وبيحكى."
الرد جاء بأكثر من صوت: "تمام... واضح بدهم يبعثوا إشارة. خليك
عالفتحة... عينك هي الأساس."
آدم ابتلع ريقه بصعوبة.
هل يعقل أنه الآن صار عنصرًا في عملية؟ هو... العالق...
الجريح... اليتيم؟
هل يُعقل أن كل العتمة التي مر بها تقوده الآن ليكون صلة
الوصل؟
جسر سري بين التراب والحرية؟
أحد الأصوات قال من فوقه:
- "آدم... إحنا بنعيد تقييم الخطة... المعلومة اللي أعطيتنا إياها
عن الحزام خلطنا نأجل الهجوم... لأنهم كانوا ناويين يضربوا تفجير
مضاد..."

آدم همس بذهول: "يعني... أنا أنقذت العملية؟"
الرد جاء بعد ثانية صمت... بصوت رجل بدا أكبر من الخوف:
"مش بس أنقذتها... أنت صرت جزء منها."
آدم أغمض عينيه... ولم يشعر أن الركاب من حوله يضغط عليه
كما كان قبل ساعة.
لقد خفّ... أو ربما، ارتفع في داخله شيء جديد...
اسمه الأمل.

أنفاس بين الركام والقرار

كانت الإنارة في مركز القيادة على أشدها، كأنها تتحدى الليل... أو كأنها تستعرض قوتها لمن ينظر من بعيد.

لكن آدم، من قلب العتمة والدم، كان يرى ما لا تراه كل تلك الإضاءة.

كان يسمع صوتهم حين يظنون أنهم في أمان.

في هذه الليلة، تسلل إليه صوت ضابط لم يكن قد سمعه من قبل... صوت خشن، حاد، لا يحمل أي تردد.

قال بالعبريّة الثقيلة من خلف زجاج الفيلا: "إن علموا أننا هنا... سنفجر المكان فورًا. لا نترك شيئًا، لا أوراق، لا خرائط، ولا بشر." تجمّد الدم في عروق آدم.

كان يعرف أن الفيلا قريبة جدًا منه...

قريبة إلى الحد الذي يعني أن تفجيرها سيمزقه مع الهواء الذي يتنفسه.

بلع ريقه... وحاول ألا يرتعش.

في الخارج، من خلف الركام الذي يُخفيه، جاءه الصوت الخافت من أحد المقاومين عبر السلك:

- "آدم... سمعنا صوتك انقطع. خير؟"

همس بصوت مبجوح: "قالوا بدهم يفجروا الفيلا لو حسوا بالخطر."

صمت من الطرف الآخر...

ثم جاء صوت مختلف، أكثر هدوءًا لكنه مشحون: "احتمال وارد...
بس هذا بيثبت أنهم مرعوبين."

آدم لم يشعر بالطمأنينة.

الخوف داخله صار كثيفًا.

ليست المرة الأولى التي يشعر فيها بالموت، لكنها المرة الأولى التي
يعرف فيها أن موته ممكن أن يأتي بقرار...

بجملة...

بزر صغير يُضغَط عليه من مكتب خشبي.

رفع رأسه قليلًا... رأى الضابط ذاته يشير بيده نحو الطابق
العلوي... وسمع كلمة واحدة:

– "لازم نكون جاهزين لأي سيناريو."

آدم غرز أصابعه في التراب من الخوف.

همس في اللاسلكي: "بدو ينقل القيادة فوق. خايف من هجوم
أرضي."

الرد جاء سريعًا: "إنت لسه عيننا... أي تغيير، بَلِّغ فورًا."

لكن آدم لم يكن مطمئنًا.

في هذه اللحظة، لم يكن يريد شيئًا أكثر من أن يخرج رأسه من
تحت الخراب، أن يصرخ للعالم: أنا هنا... لا تفجّروا المكان... هذا

ليس مجرد موقع لكم... أنا تحتكم، حي... أتوسل لكم، لا تضغطوا
الزر.

لكنه لم يفعل.

لم يكن مسموحًا له أن ينهار.

لأنه كان يعرف... أن أي خوف منه، قد يُكلف غيره أكثر من حياة.
وفي اللحظة التي ظنّ فيها أنه وصل إلى نهايته، سُمع صوت
انفجار بعيد... ثم أعقبه صوت تنبيه عسكري داخل الفيلا.

هرج ومرج...

جنود يركضون، ضباط يصرخون، وأحدهم يقول: "أطلقوا المسيرات،
الطائرات فوق المنطقة (ب)".

آدم أغلق عينيه... ربما نجا من التفجير للحظة، لكن الحرب
الحقيقية بدأت الآن.

عاصفة فوق الأنقاض

من خلف الخراب المتراكم فوق جسده، ومن تلك الفتحة الضيقة التي صار يحفظها كنافذته الوحيدة على العالم، رأى آدم الطائرة المسيّرة ترتفع ببطء، كأنها طائر ليلي وُلد للتو...

هدوءها مُخادع، وصوت مروحياتها لا يكاد يُسمع.

كان الهواء حوله مشبعًا برائحة الغبار... والحديد المحترق... لكن رثتيه تعرفتا على رائحة الخطر.

في الداخل، في مركز القيادة، انخفضت الأصوات فجأة، كأن الجميع انحنى أمام شاشة واحدة، ومراقبة واحدة، ولقطة واحدة، هي التي ستقرر أين يموت الناس.

همس أحد الضباط، صوته جاء واضحًا عبر الجدران:

– "المجموعة تتحرك شمالاً... بين الحفر... قرب المعسكر القديم."

آدم شهق دون صوت.

المعسكر القديم...

هناك كان آخر اتصال له مع باسل ومصطفى، المجموعة التي انطلقت قبل يومين بعد أن فقدوا الاتصال بالقيادة.

ضغط على السماعة الصغيرة في أذنه، وهمس:

– "في طائرة مسيّرة طلعت من الفيلا... حددوا موقع شمالي... قرب المعسكر القديم. بلغوا المجموعة فورًا."

لكنه لم يتلقَ ردًا.

لا شيء.

هل انقطع الاتصال؟ هل كانوا بالفعل في ذلك الموقع؟ هل تأخر التنبيه؟

ضرب قلبه كطبلٍ غاضب، وشعر برأسه يدوخ من القلق.

ارتفعت أصوات الجنود في الداخل من جديد.

ضحكٌ مفاجئ.

أحدهم قال: "إذا ضربناهم الآن، بنخلص على البقية. المجموعة مكشوفة كأنها تمشي على جمر."

ضحكة ثانية...

وبصقة على الأرض.

قال آخر: "أرسلوا الهدف للطيران. خلال ثلاث دقائق ستكون الأرض رماد."

رماد.

كلمة يعرفها آدم جيدًا.

رأها بأم عينيه من قبل.

واشمها، وسمعها تصرخ من بين الركاب... في صورة جثة، أو طفل بلا قدم، أو أم تحتضن ابنها المحروق.

الآن، قد يسمع رماد رفاقه وهو يتكوّن.

همس في الأثير: "باسل... مصطفى... أي حدا فيكم سامعني؟
انسحبوا فوراً من المنطقة. في استهداف جوي قادم."
لكن لا رد.

بقي وحده مع نفسه...

ومع الضوء الواهج في مركز القيادة...

ومع طائرة المسيّرة التي اختفت عن عينيه، لكن أثرها ظل عالقاً في قلبه.

دقيقتان مرتا كأنهما عمرٌ.

ثم...

دوي في السماء، وصوت صاروخ يشق الهواء.

ثم...

صمت...

فانفجار.

اهتزت الأنقاض فوقه، وسقطت ذرات تراب على وجهه، وأحس
بعظمة من كتفه تُوشك أن تتكسر.

لكن الأذى الحقيقي لم يكن في الجسد.

كان في ذلك الصوت الذي خرج من فمه كأنيته: "راحوا... يمكن
راحوا."

أغمض عينيه...

ولم يشعر بشيء بعدها سوى الخدر.

خدرٌ من نوع لا يأتي من الألم...

بل من العجز.

صدى الأسماء في الظلام

لم يكن الصوت الذي ملأ أذنيه بعد الانفجار صوت طائرة، ولا همس جهاز اتصال، ولا حتى نداء النجاة.
كان صوتاً يأتي من داخله... أشبه بتأوّه صدى، أو خشخشة ذاكرة مكسورة.

بدأ يتمتم: "باسل... مصطفى... يا رب تكونوا نجيتوا."

ثم صمت،

ثم همس آخر: "محمود... نادر... سهيل..."

أسماء خرجت كأنها طيور مبللة، تبحث عن غصنٍ لا يحترق.

هو يعرف أن بعضهم مات، وبعضهم فُقد، وبعضهم لم يعد يرد على اللاسلكي منذ أسبوع.

لكن في هذا الظلام، حين تتساوى العتمة مع الزمن، لا تجد شيئاً تتمسك به إلا الأسماء.

الأسماء تبقى.

هي آخر ما يظل حين تحترق الصور وتُسف البيوت.

في الجهة الأخرى، داخل مركز القيادة، أضيئت الشاشة من جديد، وأحد الضباط بدأ يقرأ:

- "محمود سالم... معتقل من حي الزيتون. سُينقل الليلة."

لحظة... آدم ارتجف.

"محمود سالم؟"

هل هو نفسه؟

الشاب الذي كان ينقل المصابين على نقالة يدوية في مخيم الشاطئ؟

ذاك الذي ضحك معه يوماً رغم كل هذا الحزن؟

صوت الضابط استمر: "نادر مراد... من سكان النصيرات. له صلة بأحد المشتبه بهم في عملية الشاطئ."

نادر أيضاً؟

بدأت الأسماء تتطابق... كأن مركز القيادة يرد عليه...

لكل اسم قاله، هناك اسم يعلنه العدو... لكن في قائمة مختلفة.

آدم شهق.

هو يذكروهم لأنهم أحبّاه، وهم يذكرونهم لأنهم أهداف.

فرقٌ شاسعٌ بين العدّتين.

أغمض عينيه، وكأن السواد الذي يراه الآن هو تابوتٌ مفتوح، والسماء أعلاه شاهدة قبر غير مكتمل.

ثم سمع جندياً يقول بضحكة ساخرة: "بكرا الفجر، بنكون خلصنا من هذه الأسماء."

آدم عضّ على شفّته حتى سال الدم.
كان يريد أن يصرخ، لكن الخراب في صدره كان أثقل من كل
صراخ.
ردّ همساً، كأنه يُقيم صلاة سرية: "بس الأسماء هاي... مش
حتموت.
حتى لو كتمتوها في الزنازين... راح تضل تنطق في الأرض...
وتطلع من الحجارة، ومن الدم، ومن الركाम...
زبي تمام."
ثم تتهدّ، وأغمض عينيه.
وفي الظلام، ظلّ يردد أسماءهم بصوت لا يسمعه أحد...
لكن الأرض سمعته.

النور الذي لا يصل

لم يكن الضوء ما انتظره، لكنّه رآه.

وميضٌ ضعيف انسلّ من بين كومة الركام، كأنه خيط عنكبوت
مبلل بالشمس.

حبس آدم أنفاسه، ظنّ لوهلة أن أحدهم يبحث... أنهم وجدوه أخيرًا.
ربما الدفاع المدني، أو حتى جاره الطيب "أبو خالد"، الذي ما ترك
يومًا أحدًا دون نجدة.

لكن الضوء لم يقترب.

بل ظلّ ثابتًا، كأنّه لا يعرف آدم، ولا يرى صرخته الصامتة.
شدّ عينيه، حتى كاد يؤذي ببؤؤه.

أراد أن يعرف من أين ينبعث، ذلك الضوء القاسي الذي يُعاند
الظلام كما لم يفعل بشر.

ثم عرف.

إنه من الجهة المقابلة، حيث تقع الفيلا اللامعة، مركز القيادة
الإسرائيلي.

كان الضوء ينفجر من داخله، كأنّ النهار قد نُقل إلى هناك.

مصابيح بيضاء لا تعرف الرحمة، غرف مفتوحة تشع وميضًا
يجرح.

رآهم.

رآهم بوضوح مرّ.

ضباطًا يتحركون كأن لا حرب، يأكل أحدهم سندويشًا من مطبخ
الفيلا،

ويصرخ آخر في وجه شاشةٍ تعرض بثًا مباشرًا من "درون".
الضوء هنا عدو.

إنارة لا توجّه للإنقاذ، بل للمراقبة، للرصد، للإبادة.

أما هو، فلا نور له، إلا ما يحفظه قلبه من وجوه الذين رحلوا.
رأى امرأة تقف خلف زجاج أحد المكاتب، عيناها تراقبان شاشة
تُعرض عليها خريطة الحيّ،
حيث هو الآن مدفون تحت البلاط المكسور.

هل تدري أنها تنتظر إليه وهو حي؟

هل تعرف أن تحت نقطةٍ صغيرة على الخريطة، يوجد إنسان؟

نَفْسٌ؟

حُلْمٌ؟

ألم؟

ركن رأسه إلى جانب الركام، وكأنّه يُسند ذاكرته المنهكة.

ثم همس: "هذا الضوء مش إليّ..."

الضوء هذا مش إلنا."
وكأنّه يعلن، مرة أخرى، أن في هذه الحرب...
حتى النور له ولاء.

رجل يختفي في الضوء

دخل الرجل من الباب الخلفي. كان الليل حينها كثيفاً، لكن الضوء المنبعث من مركز القيادة كان كافياً

لكي يرى آدم كل شيء.

رجلٌ نحيل، يسير كأن لا ظهر له. يدها موثقتان إلى الخلف، ورأسه مغطى بكيس أسود لا يعرف الهواء.

لم يكن يصرخ.

كان يمشي...

أو يُساق.

جندي يرفسه من الخلف، وآخر يشير نحو الباب الحديدي بجوار المولد.

وفجأة، انطفأت إنارة الغرفة اليمينية من الطابق الأرضي. ثم أُسدلت الستائر البيضاء.

كانهم لا يريدون لأحد أن يرى ما سيجري الآن.

كأن الرجل لم يدخل.

كأن الضوء نفسه قرر أن يتواطأ مع الجلاذ.

آدم حاول أن يتنفس، أن يستجمع فكرته عن هذا الرجل.

من هو؟

من أي بيت خرج؟

هل له أولاد؟

هل مرّ من أمامه ذات صباح دون أن ينتبه إليه؟

اختفى الرجل.

هكذا، ببساطة. ابتلعه الفيلا كما تبتلع الوحوش فريستها.

لا صراخ.

لا أثر.

لا ظلّ.

الضوء الذي كان يراه آدم طوال الأيام الماضية، صار الآن عبثاً...
صار ستاراً كثيفاً، حاجزاً بين الحقيقة والموت.

همس بينه وبين نفسه: "اللي بفوت هناك... ما بطلعش."

ثم ارتجف.

تخيّل نفسه مكان ذلك الرجل، والكيس الأسود فوق رأسه، والأقدام
التي تدفعه، والغرفة التي أغلقت الآن على أسرارهِ.

مدّ يده المرتجفة نحو السقف، وكأنّه يلمس ما تبقى من العالم.

ولكن لا شيء هناك...

سوى الغبار...

والصمت.

رجل يخرج دون أن يمشي

مرّ الليل على مهل. كأن الزمن أصابه الإنهاك أيضًا. لم يرمش آدم، لم يغمض عينيه.

انتظر... انتظر أن يعود الرجل الذي دخل. لكن الذين خرجوا... لم يكونوا هم.

أربعة جنود، خرجوا في خط مستقيم، يحملون نقالة قديمة، وعليها شيء مغلف ببطانية بلون لا يشبه الليل، ولا يشبه الحياة.

آدم لم يرَ الوجه، لكن شكله... طول الجسد...

الطريقة التي شدوا بها البطانية من فوق الرأس حتى القدمين... كلها كانت تقول: هذا هو.

هذا الذي دخل مغطى الرأس، يخرج الآن مغطى الجسد. لا أحد فيهم تكلم.

لا أجهزة اتصال، ولا سيارة إسعاف.

كانوا يمشون كما تمشي الجنازات الخرساء. بلا دعاء.

بلا دموع.

بلا أحد خلفهم يقول "رحمة الله عليه".

الجندي الرابع، ذلك الذي يمشي خلف النقالة، كان يحّدق في وجه
الجثة للحظة.

ربما كان يعرفه؟

ربما تذكر أخاه؟

ربما شعر بفراغ في صدره؟

ثم فجأة، سحب قطعة قماش صغيرة، ووضعها فوق الوجه، كمن
يطفئ شمعة.

آدم شهق دون صوت.

كأن قلبه هو الذي نُقل الآن.

كأن الجثة تخصّه، أو تخصّ شيئاً كان يوماً جزءاً من حريته.

حاول أن يتمسك بجدار الحفرة كي لا ينهار، لكن التراب تفتت تحت
أصابعه.

لم يستطع أن يبكي.

لم يكن البكاء ممكناً حين لا تملك الماء، ولا الهواء، ولا أحد.

في الخارج، الجنود ألقوا الجثة في مقطورة صغيرة مغلقة، وأداروا
المحرك.

لا صفارات.

لا كلمات.

لا صلاة.

وغاب الرجل...

دخل دون أن نعرف اسمه، وخرج دون أن يخطو خطوة واحدة.

صوتٌ يشبه آدم

صوت.

مجرد صوت، ولكنه ضرب قلب آدم كأنه طلقة.

كان الجنود قد عادوا، اثنان منهم فقط هذه المرة، يستديران قرب الزاوية المقابلة للفيللا، يتحدث أحدهما في جهاز لاسلكي، بصوت خافت... لكن الصمت كان سميكا لدرجة أن كل همسة تُسمع.

آدم التصق بجدار الفتحة، حتى جف جلده من الاحتكاك بالخرسانة.

"مش واضح... في تحرك شمال المربع.

بعثت خريطة؟... آه، وصلت، بس ناقصة."

توقف الزمن للحظة.

هل قال: "مش واضح"؟

هل نطقها بالعربية؟

هل كان صوتاً عربياً؟

أم مجرد عبرية مكسرة؟

لكن النبذة... شيء فيها يشبه صوته.

يشبه أبناء الحي.

يشبه شباب العشرينات الذين يخلطون لهجات غزة بالمخيمات.

آدم جحظ بعينيه نحو المتكلم، كان يلبس الخوذة نفسها، والزيّ نفسه، ولكن صوته كان... كأنه يرتجف من الداخل.

هل هو مجنّد؟

هل هو عميل؟

أم أسير أجبروه على ارتداء هذا اللباس؟

لكن الجندي الآخر لم ينظر إليه نظرة شك، بل تعامل معه كرفيق.

آدم ابتلع ريقه الجاف، وتخيل للحظة... أن هناك من في الداخل يشبهه.

يشبه صوته.

ربما يشبه وجهه أيضًا.

"احذر... احذر، في حركة عالدرج، يمكن جايين من الجهة الثانية..."

اللاسلكي صرخ فجأة، والصدى ارتطم بجدران الفيلا.

آدم خفض رأسه.

الفتحة لم تعد آمنة.

لكن عقله... عقله كان هناك.

يلحق الصوت.

يحاول أن يحفظ النبذة.

أن يفكك مخارج الحروف.
أن يقارن بينها وبين صوته عندما كان يضحك.
هل يمكن أن يكون أخًا؟
أو أحد أولاد عمه؟
أو صديقًا قديمًا من تلك الأيام التي لم تكن فيها الحرب مشتعلة؟
أم أن العزلة تخلق الأوهام؟
ربما لا أحد يشبهه.
وربما كل الأصوات أصبحت تشبهه حين لا يبقى إلا الصمت.

من الذي ينظر نحوي؟

الليل أسود تمامًا، والإنارة في مركز القيادة تشتعل بجنون، أنوار قوية وهاجة لا تعرف الاقتصاد، تسكب ضوءها الساطع على الممرات والجدران والوجوه، فتصير الظلال سكاكين، والعيون ثقوب نار.

آدم ظل يراقب.

ماذا غير المراقبة يملك؟

أحيانًا كان يغمض عينيه لحظة، لكنه يظل يشعر بأن النور يخترق الجفن، يظل يرى بعينه المغمضة ما لا يرى.

في تلك الليلة، ظهر رجل جديد. لا يحمل سلاحًا، ولا يبدو كجندي. شعره رمادي، بذلته سوداء أنيقة، يحمل جهازًا لوحيًا ويتكلم بصوت منخفض.

كان الجميع من حوله ينصتون باحترام، بل بوجل.

"ضابط استخبارات؟" همس آدم لنفسه، ثم قالها مرة أخرى: "أو ضابط كبير... أو... مسؤول القرار؟"

ثم فجأة... ذلك الرجل رفع رأسه.

ببطء.

ورفع عينيه... مباشرة.

آدم جمد.

الرجل يحدد نحو الفتحة.

نحو الحطام.

نحو المكان الذي يرقد فيه آدم.

نحو العينين العالقتين في الظل.

صمتت الدنيا لحظة.

"هل يراني؟"

"مستحيل..."

لكنّ الرجل لا يشيح بنظره.

يظلّ محدّقًا.

حتى خُيِّلَ لآدم أن هناك عدسة، أو جهاز استشعار، أو حاسة
سادسة.

ورغم أن الفتحة لا تُرى من مسافة، إلا أن الشعور كان طاغيًا.

آدم ارتبك. تراجع ببطء. أراد أن يغمض عينيه، لكنه لم يقدر.

ظلّ محدّقًا في وجه ذلك الرجل، الذي لا يتحرك، ولا يبتسم، ولا
يشيح بنظره.

ثم...

ومثل برق، استدار الرجل، ودخل غرفةً خلفية، واختفى.

لكن الشعور لم يختفِ.

آدم جلس، ثم تمدّد، ثم غطّى وجهه بذراعه المجرّحة.

كان يعرف أن لا أحد رآه، لكنه كان متأكدًا أن شيئًا قد تغيّر.

ذلك الليل، لم يشعر بالوحدة فقط، بل شعر أنه مُراقب أيضًا.

عيون لا تغادر

مرّ اليوم بصمتٍ غريب. ما بين الضجيج في مركز القيادة، والأضواء المتوهجة التي تملأ الفضاء المحيط بالفيلا، كان الوقت يتقاطع مع الآلام التي بدأت تفرغ أضلاع آدم.

لم يكن يخشى أن يُكتشف، ولكنه بدأ يشعر بشيء آخر... كأن صوته أصبح جزءًا من ما يجري في الفيلا.

بعض الجنود كانوا يتحدثون في الردهة، لكن كلماتهم كانت مشوشة، خافتة، ومفاجئة.

آدم حاول أن يسترق السمع، ولكنه لم يستطع أن يميز سوى جملة متكررة: "في حاجة غريبة قاعدة تصوير، واللي شافها... ما رجع."

قفز قلبه. "اللي شافها؟"

هل كانوا يقصدون تلك الكاميرات الصغيرة التي نُصبت في كل زاوية؟

أم كان أحدهم قد اقترب من مكانه؟

هل اكتشفوا الفتحة؟

بدأ يتنفس بسرعة أكبر. أصابعه كان يملؤها الارتجاف. الهمسات استمرت، ثم ظهرت مرة أخرى تلك الجملة المزعجة: "البحث مستمر. النظام تلقى إشارة غريبة من الزاوية اليسرى للفيلا."

كانت تلك الزاوية هي أقرب نقطة من المكان الذي كان يتسلل منه الصوت، حيث كان الجنود يمرون دون أن يلاحظوه.

إذن، هل هم فعلاً يراقبونه؟

هل كانت تلك العين التي رآها هي عين الحقيقة؟

هل من الممكن أن يعرفوا الآن؟

هل انكشف أمره؟

آدم عقد يديه، وسحب ساقه المصابة، كأنما يسحب نفسه من فم الجحيم.

ثم، تردد صوته الخافت بين الجدران: "إذا كانوا يبحثون عني... ما في مكان للاختباء..."

لكنه أغمض عينيه ببطء.

في تلك اللحظة، أدرك شيئاً غريباً.

ليس هو من يُطارَد.

هو من يطارد.

فهم، لكنه لم يفهم تماماً.

هل الجنود يطاردون شخصاً آخر؟

هل كانت تلك الهمسات عن هدفٍ آخر؟

أم أن الشكوك قد وقعت عليهم كلهم؟

هل أصبح الكل مرصودًا؟

حتى هو، الذي لا يزال تحت الأنقاض؟

في ذلك الممر الطويل المظلم، بينما تتقاطع الأضواء، وتمتزج الأصوات، وجد آدم نفسه يفكر في أن هذه اللحظة قد تكون أيضًا النهاية.

هل كانت عيونهم تراقب الجميع؟

هل سيتحول الليل إلى صراع بينه وبينهم؟

هل أصبح هو "الهدف" الذي ينتظرهم؟

فقط...

سيبقى الوقت هو الجواب.

عاصفة الأسئلة

مرت ساعات، أو ربما أيام، آدم لم يعد يميز الزمن.
كل شيء أصبح يتشوه أمامه، ويبدو كأن الحفرة التي احتجز فيها
أصبحت عالماً منفصلاً.
العالم الخارجي يقترب، ثم يبتعد، ولكنه لا يصل.
ظلّ يراقب من خلال الفتحة الصغيرة.
الجنود في حركة دائمة، ينقلون الأوامر، يتحدثون، يجلسون،
يرتشفون القهوة، ثم يغيرون المواقع.
لكن شيئاً ما في الحركة، في السكون، في الكلمات، كان يثير القلق
في داخله.
كان هناك شيء غريب في مركز القيادة.
ثم تذكر تلك الفتاة، التي رآها في الغرفة التي اختفى فيها الرجل
الملفوف بالبطانية.
هل كانت تُسجل أوامر؟
هل كانت مجرد موظفة؟
أم أن لها علاقة بما يحدث في الداخل؟
آدم حاول أن يربط خيوطاً مبهمّة.
لم يكن يملك سوى الصور القليلة التي رآها في تلك اللحظات
العابرة.

الفتاة كانت في غرفة ضباط القيادة، تتحدث مع أحد الجنود، ثم
اختفت خلف الباب المغلق.

هل كانت جزءًا من النظام؟

أم أنها ضحية، مثلهم، وقعت في قبضة الجنود، تحاول النجاة بما
تبقى لها؟

توقف فجأة، وتتففس بصعوبة.

كان قلبه يوجعه أكثر من جسده.

لقد سمعها.

وهو لا يعرف إذا كان ذلك حقيقيًا أو لا.

في تلك اللحظة، رأى الجندي ذاته، الذي كان يتحدث مع الفتاة،
يمر أمام الفتحة.

آدم سمع همسات على بعد أمتار قليلة، تقترب، ثم تتلاشى.

- "العملية بدأت. المجموعة التي تم تحديدها في المنطقة..."

آدم شد على أنفاسه.

هل كان يتحدث عن الخلية التي كان جزءًا منها؟

هل كان الهدف منهم؟

أو ربما هدفه شخص آخر؟

الأسئلة كانت تتوالى عليه كأمواج هادرة.

القلق أصبح يضغط على صدره حتى لم يعد يستطيع التنفس.

وفي تلك اللحظة، رأى مشهدًا غريبًا. الفتاة نفسها، التي كان قد رآها في غرفة العمليات، تعود إلى الغرفة، لكن هذه المرة، كانت تحمل شيئًا بيدها.

شيء صغير، ملفوفًا في ورق.

لكنه لم يكن يستطيع تحديد ماهيته.

لم يتحمل، قال بصوت خافت: "هل هي واحدة منهم؟"

وفي اللحظة التي أغلق فيها عينيه، أحس بشيء يربك تفكيره.

شعور غريب، كأنما كانت تعرفه.

هل رأى هذه الفتاة قبلاً في مكانٍ ما؟

هل كان وجهها جزءًا من ماضيه؟

آدم لا يعرف، لكن القلق كان يزداد، ويشعر بشيء يقترب.

وكأن أضواء مركز القيادة

تريد أن تضيء كل أسرارهِ.

خلف الستار

مرت ساعات أخرى، لكن الزمن في ذلك المكان أصبح بلا معنى.
آدم كان يراقب تحركات الجنود، لكن ذهنه كان متشابكًا مع صورة الفتاة.

رأى وجهها بوضوح، في لحظة، ولكنه لا يستطيع أن يذكر كيف كان يشبهه.

هل رآها في مكان آخر؟

هل قابلها يومًا ما قبل هذه الفوضى؟

الحقيقة، أنه لا يعرف.

لكنه شعر أن هناك شيئًا غريبًا يربطه بها.

كان قلبه ينبض بسرعة أكبر الآن.

أصوات الجنود تتداخل مع أفكاره، لكن صورة الفتاة تبقى في ذهنه.

ماذا كانت تحمل بين يديها في المرة الأخيرة التي مرّت فيها أمامه؟

عينيه زاغتا نحو الباب الذي كانت تخرج منه.

كان يشك، لكن كان لديه شعور عميق بأن شيئًا مهمًا كان يحدث هناك.

ثم تذكر.

في إحدى المرات التي كانوا يتجمعون فيها في الحي قبل بداية الحرب، كان هناك حديث في الحي عن "شخصيات" تنتقل بين الناس. لكن لم يكن يتخيل أن يكون هذا الشخص... هو نفسه الذي رآه الآن في مركز القيادة.

وما أثار شكوكه أكثر هو كيف كانت تراقب الجميع بهدوء، وكأنها تدرك ما سيحدث قبل أن يقع.

آدم بدأ يفكر أن الفتاة ربما تكون قد رافقته في مكانٍ ما، ربما كانت جزءًا من شبكة كانت تعمل خلف الستار، مخفية بين الجنود، تنقل المعلومات أو تُنفذ الأوامر.

هل يمكن أن تكون هي تلك "العين" التي تراقب من بعيد؟

هل هي جزء من الخلية السرية التي تعمل داخل مركز القيادة؟

آدم حبس أنفاسه، وبينما كانت أفكاره تتسارع، سمع صوتًا بعيدًا يقترب.

وكان صوت الجندي الذي كان يتحدث مع الفتاة في وقتٍ سابق.

"هيا، نحتاج لتغيير الترتيبات في الغرفة. المعلومة وصلت، وكل شيء جاهز."

آدم سمع تلك الكلمات بوضوح.

هل كانت المعلومة تتعلق به؟

أم كانت تتعلق بأحد آخر؟

أغمض عينيه لحظة، وهو يحاول فك شيفرة ما سمعه.
هل سيكون اليوم هو اليوم الذي سيكتشف فيه الحقيقة؟
هل سيعرف أخيرًا سبب وجوده هناك، وتلك الفتاة الغامضة التي
ظهرت في الوقت الذي لم يتوقعه؟
آدم لا يعرف، ولكنه شعر أن الوقت يضغط عليه، وأن الصمت
الذي يحيط به ليس أبدًا سلامًا.
كل شيء على وشك الانفجار.

الفجوة الخفية

في ليلة خرساء لا يُسمع فيها سوى طنين الكهرباء القادم من مركز القيادة، ظل آدم يحقّق في الشق الذي يطل على العالم الذي لا يستطيع الوصول إليه.

لكنّ عينه هذه المرة سقطت على شيء آخر.

زاوية في الجدار الخفي، لم يلتفت لها من قبل.

ربما لأن غبار الانقراض كان يغطيها، أو ربما لم تكن موجودة أصلاً.

تحرك بصعوبة، زاحقاً بجسده المتألم نحو تلك الزاوية، ثم مدّ أصابعه التي ما زالت قادرة على الإحساس، ونزع بحذر كتلة صغيرة من الإسمنت الهش.

وراءها، انكشفت له فجوة صغيرة، مظلمة، لكنها عميقة بما يكفي لأن تُخفي شيئاً.

أدخل يده، فاصطدمت بأشياء.

أشياء ليست من الحجارة، ولا من بقايا البيت.

كيس قماشي ملفوف بخيط رفيع.

فتح الكيس، وبعينين نصف مغمضتين من الضعف، رأى داخله بقايا أكل مجفف، قطعة بلاستيكية عليها كتابة عبرية، وبطارية صغيرة.

توقف الزمن.

كان واضحًا أن أحدًا ما استعمل هذا المكان قبل وجوده، أو ربما بالتزامن معه.

كان هذا مخبأ.

مخبأ حقيقي.

لكن لمن؟

هل هناك من يمر من هنا ليلاً؟

هل هو سجين أيضًا؟

أم عميل؟

أم أحد المقاومين الذين استطاعوا التسلل خلف خطوط العدو؟

الاحتمالات كانت كالسكاكين في دماغه.

ورجفة خفيفة سرت في عموده الفقري.

ربما لم يكن وحيدًا طوال هذا الوقت.

وربما، الأسوأ، أن هناك من كان يراقبه من الجهة الأخرى دون أن يشعر.

تحركت أنفاسه ببطء.

ليس من الخوف، بل من إدراك الحقيقة: هو ليس في مأوى تحت الأنقاض فقط، بل داخل مسرح عملية... لم تبدأ بعد.

عاد بنظره إلى الشق المواجه لمركز القيادة.

رأى الفتاة ثانية.

لكن هذه المرة، كانت تنتظر مباشرة إلى الكاميرا في يد أحد الضباط.

ثم أومأت برأسها... كأنها تؤكد شيئاً.

هل هي تعلم بوجوده؟

هل كانت هي من تضع الطعام في الفجوة؟

أم هي من ترصد تحركاته منذ البداية؟

آدم شعر أن كل شيء يتحرك حوله، لكن لا أحد يقترب.

وكأنهم بانتظاره أن يفعل هو... الخطوة الأولى.

الْوَشْوَشَة

جلس آدم ثابتًا، ينظر إلى الفجوة خلفه، ثم يعود ببصره إلى الشق
المُطلّ على مركز القيادة.

الضوء هناك ما زال ساطعًا ووهاجًا، يتسلل ببطء إلى زاوية جسده،
ويلمس ذراعه كلسعة شمس باردة.

لكنه لم يكن مشغولًا بالضوء الآن.

أذنه اليمنى التقطت شيئًا.

صوت.

هامس، عميق، لا يشبه دويّ الطائرات ولا صفير الرياح بين الركاب.

ولا يشبه حتى صرير أحشائه الفارغة.

صوت بشري، يأتي من داخل الفجوة.

تجمّد.

مدّ رأسه ببطء نحو الثقب، ألصق أذنه بالحافة الإسمنتية، وأصغى
بكل ما أوتي من انتباه.

"...هو... ساكن؟"

قالها الصوت.

ثم تبعها صمت.

"سَمِعْتُهُ..."

كان الصوت الآخر، مبجوحًا، كأنه يخرج من رئة مجروحة.

آدم سحب رأسه.

نفسه ارتطم بضلوعه.

هناك أحد خلف الجدار.

هناك من يتحدث.

بل، هناك من يعرف بوجوده.

لكن كيف؟

ولماذا الآن؟

تردد.

ثم قال بصوت مبجوح: "من هناك؟!"

سكت الصوتان.

لكن وقع الصدى لم يسكت.

ظل يتردد داخله.

عاد الصوت الأول، أقرب هذه المرة، كأنه يزحف إليه: "هل أنت..."

آدم؟"

انقبض قلبه.

لم يكن هذا اسمًا شائعًا.

ولم يكن صوته قد وصل إلى أحد، لا فوق الأرض ولا تحتها.

"من أنت؟! صرخ، لكن صوته خرج ضعيفًا، مرتجفًا.

"لا تخف... نحن نعرفك."

"أنت الشاهد... أليس كذلك؟"

شهق آدم.

اتسعت عيناه.

تراجع للخلف، وهو يهمس لنفسه: "من... أنتم؟!"

لكن لا جواب.

الفجوة صمتت، كأنها ابتلعت كل شيء.

عاد الضوء الساطع من مركز القيادة ليُغرق وجهه.

كان الجنود يتحركون الآن بسرعة.

إشارات تُعطى.

الفتاة غير موجودة.

وكان شيئًا ما بدأ يحدث... في الجهتين.

لكن آدم، في تلك اللحظة، لم يكن ينتمي لأي جهة.

كان عالقًا في المنتصف.

بين الشقّ الذي يرى... والفجوة التي تسمع.

ارتجاف

جلس آدم متوترًا، يتنفس بسرعة كمن نجا من غرق. يده لا تزال ترتجف منذ الوحوشة، وقلبه كأنما يسير فوق سلكٍ مشدود بين نقيضين: الخوف من المجهول خلف الجدار، والرعب من المؤكد خلف الزجاج.

ألقي نظرة جديدة نحو مركز القيادة. الإنارة ما زالت قوية، ووهاجة، وكل شيء تحتها يبدو مكشوفًا، حتى الأسرار.

لاحظ شيئًا لم يكن هناك من قبل: ضابطٌ أشيب الرأس، بدين قليلًا، يرتدي قفازات سوداء، يركع بجانب الطاولة الرئيسية، ويُخرج من تحتها حقيبة جلدية سوداء.

فتحها.

لم يرَ آدم ما بداخلها، لكن لحظة الفتح بدت ثقيلة... كأن شيئًا سينهض منها ولا يعود كما كان.

في تلك اللحظة، دُفِعت فتاة إلى الداخل.

هي! الفتاة نفسها! شعرها مبلول، وجهها شاحب، وثوبها ممزق من الكتف، يدها مقيدة خلف ظهرها.

اقتادوها نحو الطاولة، جلس الضابط الأشيب أمامها، فتح دفترًا صغيرًا أسود، وشرع يطرح أسئلة لم يسمع آدم منها سوى كلمات متقطعة: "متى؟" "كود الدخول؟" "كم يومًا؟"

والفتاة كانت صامتة. تنظر إلى الحائط، لا إلى الضابط.

وفجأة... رفعت عينيها نحو الشق.
نحو آدم.
نظرت مباشرة في عينه... كأنها تراه.
تجمد الدم في عروقه.
لم يتحرك، لم يرمش.
لكنها... ابتسمت.
ابتسامة قصيرة، متعبة، لكنها حقيقية.
وكأنها تقول: "أنا أعلم بوجودك."
ارتجف آدم.
ثم حدث أمر غريب...
رائحة.
من خلفه.
كأن جدار الغرفة تنفّس.
هواءً مالحاً، خفيف، يحمل شيئاً يشبه الطحالب والحديد...
أو الدم القديم.
النفث.

الفجوة تتسع.

ببطء، كأنها تنهار إلى الداخل.

وصوت...

صوت يشبه احتكاك العظام بالحجارة، يخرج منها.

لم يكن هذا مكاناً طبيعياً.

لم تكن الفتاة أسيرة عادية.

ولا الضباط يقومون باستجواب عادي.

ولم يعد ما خلف الجدار مجرد ظلام.

بل شيء حي...

شيء يعرفه.

الظل الذي لا يرى

سحب آدم نفسه بعيداً عن الشق، لكن الصوت كان قد استقر في أذنه...

لا، في عموده الفقري.
لم يكن صوتاً. كان إحساساً غامضاً: نداءً يُسحب من داخله، كأن الجدار وراءه يطلبه لنفسه.

استدار نحو الفجوة ببطء، كانت أوسع قليلاً، وسوادها أعمق.
تردد لحظة. ثم زحف باتجاهها، يده تلمس الحطام البارد، والهواء حوله يزداد كثافة.
دخل.

الفتحة كانت ضيقة، لكن جسده النحيل تسلل بصعوبة.
وعندما تجاوزها، وجد نفسه داخل نفق رملي غريب.
لم تكن جدرانها كالجدران.
بل ملساء، كأنها صُقلت بفعل الزمن والماء والدم.
كان النفق يتنفس، نعم، يتنفس ببطء، وكل شهيق منه يُطلق نسيماً مالحاً، فيه أثر البحر وأثر شيء آخر... شيء قديم.
زحف قليلاً، ثم توقف.

على الجدار الأيمن للنفق، رأى كتابات لم يرَ مثلها من قبل: أحرف غريبة، تشبه العبرية لكنها مقلوبة،

مرسومة بمادة لامعة بلون أزرق فسفوري، وكأنها لا تضيء المكان
بل تضيء العقل نفسه.

مدّ إصبعه ولمس واحدة.

رعشة!

جسده كله ارتجف، وسرعان ما شعر بصدى خافت في رأسه، صور
سريعة مرت في ذهنه: رجلٌ مُقنع يركض بين أنقاض قديمة

جنديّة تبكي داخل غرفة بيضاء

صبي يرفع علم فلسطين من سطح مسجد مهذّم

وآدم... نفسه... يقف على منصة عالية ويخطب في جمع غاضب

أزاح يده بسرعة.

ثم سمع صوتاً خلفه... "آدم..."

تجمد.

لم يكن الصوت خارجياً.

بل داخلي، كأنه خرج من صدره... من ذاكرته القديمة.

أدار رأسه، لكن لم يكن هناك أحد.

فقط ظلٌّ على الجدار... ظلٌّ لا يُرى، بل يُحسّ.

كان ظل إنسان يقف وراءه مباشرة.

الغرفة المغمورة

ظلّ الصوت يلاحقه كأن النفق نفسه صار يتحدث إليه، لا
بالكلمات، بل بالاهتزاز.

كل خطوة زحف كانت أشبه بنبض جديد في قلب المكان.

ثم فجأة، انتهى النفق...

أمام آدم اتسعت فجوة كبيرة، لا سقف لها ولا جدران مرئية، فقط
ضوء خافت ينبعث من مصباح كهربائي معلق في اللاشيء، والماء
يغمر الأرض حتى مستوى ركبتيه، يلمع تحت الضوء كأنه زئبق.

ابتلع ريقه، ونزل بحذر.

صوت الطين تحت قدميه، ورشة الماء، وتهيدة الجدران... كل
شيء بدا حيًا بشكل مريب.

اقترب أكثر من مركز الغرفة.

في المنتصف، كانت هناك منصة حجرية مربعة، كأنها مذبح
صغير أو طاولة قديمة، وعليها مجسم من الصخر، يبدو كأنه وجه
إنسان... لكنه مشوه من أحد الجانبين.

مدّ يده، وتردد.

هل يلمسه؟

هل يستحق الأمر المخاطرة؟

فجأة، لم يكن عليه أن يقرر.

المجسم تحرّك.

نعم... لا خداع في البصر.

المجسم دار بببطء حتى صار يواجهه تمامًا، ثم انشقّ نصفه، وخرج منه ضوء قوي للغاية، أبيض، حاد، كأنه كشاف عسكري يخترق عقله.

أغلق عينيه وسقط على ركبتيه، يصرخ بلا صوت.

ثم...

هدوء.

فتح عينيه فوجد نفسه لا يزال هناك، لكن الغرفة قد تغيّرت.

كل شيء بات أوضح.

الجدران ظهرت، وكانت مغطاة برسوم: خرائط، رموز، وشخصيات ترتدي زيًا عسكريًا غير مألوف.

وعلى الجدار المقابل، كانت هناك صورة كبيرة لشخص مقيد اليدين... وفي زاويتها، ختم إسرائيلي أحمر.

اقترب آدم، ورأى الاسم تحت الصورة: "الأسير آدم صالح - مصنف: خطر خاص"

شهق.

لم يكن يعرف هذا الاسم.

لم يكن يعرف أنه أسير.

لكن الصورة...

كانت له.

* * *

ملف مصنف سري

ظل آدم يحدّق في صورته المعلّقة، والاسم المكتوب أسفلها.

لم يكن هذا مجرد حلم أو لعبة بصرية من آثار الصدمة... بل كان الأمر حقيقياً بما يكفي ليجعل جلده يقشعر ورجليه تتراجعان خطوة للوراء.

استدار وقد شق القلق صدره مثل مشرط، وقبل أن يغادر الغرفة، لمح في الزاوية اليمنى السفلى من الحائط شيئاً أشبه بمقبض معدني صغير مدمج في الجدار.

مدّ يده وسحبه ببطء... "تك"

فتح الجدار عن درج خفي مغلق، وكأن المكان صُمم ليبقى سرّاً للأبد.

سحب الدرج بصعوبة، فخرج منه ملف سميك أحمر اللون، مغبرّ الحواف، مختوم بالشمع، وعليه كتابة عبرية كبيرة:

"מסווג מאד - נסויים באסירים"

سري للغاية - تجارب على الأسرى

شعر بقلبه يضرب كتفيه من الداخل.

فتح الملف، وصفحات رطبة بدأت تتقلب بين أصابعه المرتجفة.

أول صفحة: "الموقع: القطاع 31 - فيلا القيادة"

التاريخ: أغسطس 2025

ثم تقارير ... بالعبرية، لكن معظمها مرفق بصور ورسوم توضيحية، وبعض الهوامش كانت بالإنجليزية، كُتِبَ فيها:

"Subject #A17 – أظهر قدرة على البقاء بعد ثلاث جرعات من المركّب X-9"

"آدم صالح – عمره 29 عامًا – تم اختياره للتجربة نظراً للياقة الجسدية العالية والسمات النفسية الخاصة"

"تجربة الإدماج الحسي الكامل عبر الصدمات – النتائج غير مستقرة"

آدم شهق!

اسمه مذكور!

صفحات أخرى كانت تتحدث عن زرع أجهزة تتبع تحت الجلد، وعن تخدير وحقن ونقل سري بين "مراكز لوجستية"، حتى أن بعضها ذكر ما وصفته الوثائق بـ "تجربة الاستفاقة تحت الأنقاض" — وهو ما عاشه بالفعل!

لكنه لا يذكر شيئاً من ذلك...

كيف نُقل؟ كيف جُرّب عليه؟ لماذا لا يتذكر؟

هل كل ما يعيشه الآن جزء من التجربة؟

رفع رأسه نحو الجدران من جديد، كل شيء بات يوحى بالاصطناع، كل حجر وكل ضوء...

هل هو في سجن وهمي؟

هل هذه مشاهد تم إخراجها بذكاء ليدفعه إلى الانهيار أو الانفجار؟

وقبل أن يستكمل الورقة التالية...

سمع صوتًا واضحًا جدًا، كأنه خرج من المجرى الهوائي قرب
السقف:

"Subject A17 has reawakened. Initiate Phase II"

(تمت استفاقة العينة A17 – ابدأ المرحلة الثانية)

الملف سقط من يده.

وضوء أحمر بدأ يغمر الغرفة...

المرحلة الثانية

المشهد: آدم يُدْخِل في تجربة غريبة، حيث تتغير ملامح الواقع من حوله، ويبدأ في رؤية وجوه يعرفها... أمه، شقيقه الشهيد، طفل من الحي، ثم وجه الجندي الإسرائيلية ألينا. كلهم يظهرون في مشهد مسرحي داخل الغرفة، ليكتشف أن كل ما يمر به ليس مجرد مراقبة بل "إخراج".

الضوء الأحمر غمر الغرفة كما تغمر النيران الحقول الجافة في عزّ تموز.

لم تعد الجدران كما كانت.

لم يعد للزوايا شكل.

حتى الأرض... باتت تُرْجّ، لا بفعل زلزال، بل كأن أحداً يجرها من تحتها كما تُسحب خشبة مسرح.

نعم... خشبة مسرح!

تحوّلت الغرفة فجأة إلى فضاء مفتوح، تُنار جوانبه بكشافات عالية، وكأن المشهد سينطلق أمام جمهور، أو ربما أمام كاميرا!

ظهر أمامه باب، ومنه خرجت أمه، بثوبها الأزرق المطرز، كما يتذكرها تماماً... كانت تمشي نحوه ببطء، تحمل وعاء فيه شوربة عدس ساخنة، وتقول بصوت مبجوح

"كُل... لتقوى... رجلك بردانة... قلبي مش مطمئن يا يمّا..."

اقترب منها... لكنه كلما مَدَّ يده، ابتعدت، حتى ذابت في العتمة.
خرج من البوابة التالية وجه شقيقه الشهيد، مصطفى، ببزته
العسكرية القديمة، ممزقة، وصدرة ينزف.
صرخ آدم: "مصطفى؟!"

لكن مصطفى لم يرد. وقف ورفع يده اليمنى، وأشار إلى جدار
خلفي.

ثم خفت الضوء فجأة، وبدأ وجه آخر بالظهور... طفل صغير، لم
يتجاوز السابعة، بثوب ممزق، وعين دامعة، وذراع مبتورة.

تذكّر آدم فوراً... كان اسمه علاء، قُتل في غارة على سوق
النصيرات، كان قد حمله مرة ليواسيه حين بكى لغياب أبيه.

قال الطفل الآن، بصوت حاد وغريب: "ليه ساكت؟ احكي. قول إلهم
وين الوجع."

فجأة... تحول المشهد.

ظهر كرسي أسود دوار، يجلس عليه رجل يرتدي نظارات سوداء
وسترة عسكرية مقلّمة، ويهمس لشخص خلف الزجاج: " Subject
A17 يخضع للاختبار الأخير. دمجه مع ذاكرته العاطفية أتى بنتائج
مضطربة... ننتظر تجاوبه مع العامل المحفز النهائي."

سُحب جدار شفاف آخر...

وخرجت ألينا.

نعم، الجنديّة الإسرائيليّة التي كان يراها يوميًا داخل الفيلا، تمرر الأوراق، تصرخ على الأسرى، تتحدث بالعبريّة الفصحى ثم تضحك باللهجة الروسيّة.

لكنها الآن... تلبس ثوبًا أبيض، وعينها مليئة بشيء يشبه الحزن.

وقفت أمامه، وهمست: "آدم... هذه ليست فيلا. هذا مختبر.

هذه ليست حرب. هذه لعبة.

وكلنا أسرى."

اقترب منها، يريد أن يفهم، يريد أن يصفع أو يحضن أو يبكي أو يهرب...

لكن قبل أن ينطق، سُحبت الستارة فجأة.

وكل شيء انطفأ.

صوت ميكانيكي من السقف:

Phase II completed. Proceeding to Neural "

".Reconstruction

اكتملت المرحلة العصبية الثانية. وجار الانتقال إلى مرحلة إعادة البناء.

التكوين العصبي

آدم كان ينزلق في بحرٍ من العتمة. أشخاصٌ يتساقطون من حوله كأوراق الخريف، وشظايا من الذكريات تتناثر حوله، لا يستطيع الإمساك بأي منها.

"Phase II completed". اكتملت المرحلة.

الكلمات كانت تطرق رأسه مثل ضجيج المعدن في آلة ضخمة.

تتداخل مع أفكاره، مع الصور التي تهجم عليه وتختلط...

هل هو في حلم؟ هل هو في كابوس؟

هل هذا هو عقله الذي يتم تشويبه؟ أم أن جسده هو من يتفكك؟

صوت الآلة استمر، يرنّ في أذنه اليسرى، ثم تبعه شعور غريب بالانفصال.

كأن جسده نفسه صار غيره.

الزمن توقف.

بدأت الوجوه تتغير، تتبدل، تظهر وتختفي كخيوط ضوء مبتورة، ثم ظهر هو من جديد، لكنه كان مختلفًا.

عينيه كانتا مشوشة، وهو لا يستطيع تمييز الوجوه من حوله.

ماذا يحدث؟

هل هو في مختبر عسكري؟

هل هو في عالم آخر؟

فجأة، ظهرت صورة أمه.

لكنها كانت ترتدي ثوبًا مغطى بالتراب، وهي تبكي.

ثم اختفت لتظهر ألينا، أمام وجهه، وبصوت خافت: "هل تعلم؟ نحن أيضًا بشر."

حاول أن يحيب، لكنه لم يستطع.

كأن لسانه أصبح ثقيلًا، وعقله مشوشًا أكثر من أي وقت مضى.

ثم ظهر صوت ضابط آخر، صوت كان قد سمعه مراتٍ عديدة قبل ذلك.

لكن هذه المرة كان أقوى، وأشد وضوحًا: "أنت لست وحدك، آدم. هذه المرحلة هي اختبار للذاكرة العصبية. عقلك خاضع لنا الآن.

ولكن تذكر، كل شيء فيك جزء من الخطة."

آدم كان يصرخ في نفسه.

هل كان جزءًا من الخطة منذ البداية؟

هل حياته كلها كانت محض تجربة؟

أين هو الآن؟

هل هو جزء من الذاكرة الزائفة أم الحقيقة؟

هل هو آدم الذي يعرفه الناس، أم إنسان آخر صُنِعَ في مختبر عسكري؟

ثم شعرت قدمه بالأرض الباردة.

أرض غير أرض هذا المكان.

أرض مختلفة.

كأنها الأرض التي أهلكت بالدمار.

أرض كان يعرفها منذ أن كان طفلاً.

رفع رأسه ببطء، ثم نظر من خلال الزجاج الكثيف حوله، ورأى الحطام.

ثم رأى أشخاصًا مكبلين، يرتدون ثيابًا مزرقة بالدماء.

لكنهم... كانوا يتوجهون إليه.

- "آدم... أنت... هنا."

الوجوه اختفت.

ثم أغمض عينيه مجددًا، وصرخ: "أريد أن أعرف الحقيقة!"

المشاهد تتسارع، والأفكار تتداخل.

آدم يجد نفسه بين الواقع والتجربة.

هل هو أسير حقيقي؟

أم أنه جزء من تجربة لا يُدركها؟

بداية المرحلة الثالثة على الأبواب.

بين الحلم واليقظة

كل شيء حوله أصبح مشوهًا. الزمن يذوب، والأصوات تتداخل، الضوء الذي يطال جسده لم يعد يشبه الضوء، بل هو خيال يتراقص، يتمايل على جدران وذكريات مكسورة.

آدم كان يحدّق في الفراغ، ولكنه لا يعرف إذا كان يحلم أو إذا كان يعيش.

الصور التي مرّت أمامه كانت تتغير بلا توقف، كل لحظة تصبح جزءًا من صورة أكبر وأكبر، صورة تكتسح عقله وتشلّ قدرته على التمييز بين الواقع والوهم.

صوت ضابط آخر دخل في أذنه: "أنت تقترب من الحقيقة، آدم. ولكن الحقيقة ليست كما تتخيل. نحن لا نتحكم فيك، بل نحن نساعدك على إيجادك. نحن نعيدك إلى مكانك." آدم انتفض.

أين هو مكانه؟

ماذا يعني أن يُقال له إنه سيجد نفسه؟

كانت رؤيته مغطاة بضباب كثيف، لكن شيئًا في داخله بدأ يصرخ. هذه ليست حياته.

لم يكن هذا الطريق الذي اختاره.

لكن...

كان يدرك شيئاً آخر.

هو كان جزءاً من النظام العسكري.

وليس هذا من خياله.

لقد خُذع.

ربما كان هو نفسه أحد الأشخاص الذين يراقبون الآخرين، شخصاً مفقوداً في الزمن.

شخصاً تم تغييره ليصبح جزءاً من جهاز معقد.

ومع تلك الهمسات التي لم تتوقف، ومع الضباب الذي أخذ يذوب من حوله، بدأ يلاحظ شيئاً آخر.

كان يعرف هذه الوجوه.

- "أنت لست وحدك، آدم."

"أنتم كلكم جزء من بعضكم البعض."

أغمض عينيه، ثم فتحها مجدداً.

في لحظة صمت، شعر أن الزمن تغير.

الحياة التي مرّت عليه منذ لحظة القصف في غزة حتى الآن، كلها ذكريات منتزعة.

ولا شيء كان حقيقياً.
ولكنه لم يستطع التراجع.
كان عميقاً في التجربة، وكلما اكتشف شيء جديداً، اتسعت الفجوة
بينه وبين ذاته.

هل هو مجرد آلة؟
هل أصبح مثل أحد المجسمات في المختبر؟
في تلك اللحظة، شعر بشيء غريب يتسرب إلى جسده.
شيء يقترب منه، شيء يعرفه، لكن لا يستطيع تذكره تماماً.

ثم...
صوت جديد.
- "آدم، لقد انتهت المرحلة الثالثة. الآن سنبدأ بإعادة توجيهك."
وعلى الرغم من أن الكلمات كانت باردة، إلا أنها كانت حقيقية.
آدم أصبح لعبة في يد الآخرين.
ليس هناك سوى المستقبل الذي ينتظره، وفيه سيكتشف أكثر عن
نفسه.

ولكن في تلك اللحظة، كان أكثر ضياعاً من أي وقت مضى

الصدمة النهائية

أغمض آدم عينيه، ثم فتحهما مجددًا، لكنه لم يعد يرى نفس الصورة التي كان يراها من قبل.

كانت الغرفة التي يتواجد فيها قد تغيرت مجددًا.

الضوء أصبح أزرق، والهواء يضغط على صدره كما لو كان يخنقه.

"مرحلة جديدة."

قال الصوت الميكانيكي الذي يتردد في أذنه، وكان يشبه صوت آلة قديمة تعاني من خلل.

"انتقلت الآن إلى الواقع الموازي."

آدم شعر بشيء ثقيل في قلبه.

الواقع الموازي؟

ماذا يعني ذلك؟

هل هو في عالم آخر الآن؟

هل ما يعيشه ليس حقيقيًا؟

بدأت الأرض تحت قدميه تتغير. شوارع غزة القديمة، تلك التي دمرها القصف، أصبحت الآن مكتظة بالمباني الحديثة، والناس يمرون حوله بسرعة، لكنهم لا يلتفتون إليه.

كان يشعر أنه غريب في هذا المكان، كأن جسده لا ينتمي إلى هذا العالم.

صورة الطفلة الصغيرة، التي رآها في ذهنه مرارًا، ظهرت أمامه فجأة.

كانت تبتسم، ولكن وجهها كان ضبابيًا.

ثم اختفت.

"هل هذا هو ما كنت تبحث عنه؟"

سأله صوت آخر، صوت كان قد سمعه من قبل.

لكن هذه المرة كان الصوت واضحًا جدًا. إنه صوت ألينا.

آدم بدأ يركض، ركض إلى الشوارع التي تملؤها الوجوه المألوفة، لكنهم جميعًا كانوا يبتعدون عنه.

"آدم، هذا ليس المكان الذي ينتمي إليه عقلك."

قالت ألينا مرة أخرى.

كانت تظهر أمامه، ثم تختفي، ثم تظهر مجددًا، لكن هذه المرة، كانت أكثر وضوحًا من أي وقت مضى.

كانت تقف أمامه، وبين يديها ورقة صغيرة.

"الورقة... هي المفتاح."

همست.

مدّ يده إليها، لكنه لم يستطع لمسها. تلاشت في الهواء، كما لو
كانت سراً.

وبينما كان يقف هناك، شعر بشيء ثقيل على قلبه.

"أنت لست حراً، آدم."

قال الصوت الميكانيكي، ثم ظهرت صورة عينية كبيرة أمامه، عين
تري كل شيء.

كانت الرسالة الأخيرة.

ثم، فجأة، ساد الصمت.

آدم شعر بشيء لا يستطيع تفسيره.

لقد فقد كل شيء.

وأصبح جزءاً من تجربة لا نهاية لها.

الاستفاقة

عندما فتح عينيه، كان الضوء مختلفًا. كان نقيًا، وكأنه شيء قديم مُعاد تجديده.

لم يكن في ذلك المكان الضبابي الذي ضاع فيه سابقًا.

لم يكن في الغرفة المظلمة أو النفق الموحش.

كان في غرفة بيضاء، رائحتها نظيفة، باردة، كما لو كانت غرفة عمليات حديثة.

شعر بشيء ثقيل في صدره.

وبدأ يلاحظ التفاصيل من حوله: الأرضية الجليدية، والأسطح البراقة، والأجهزة المعلقة على الجدران، أجهزة مدمجة في الحائط، تبدو وكأنها تشاهد كل شيء.

كان هناك ضابطان يقفان أمامه.

أحدهما كان ينظر إليه بشفقة، بينما الآخر كان يحدق في شاشة معدنية، تقرأ رسائل مختصرة، لا يفهمها آدم.

"لقد استفقنا أخيرًا."

قال الضابط الذي نظر إليه بشفقة، صوته خافت، كأنه يحاول أن يكون لطيفًا معه، لكن هناك شيء غريب في نبرته، كأن الأمر أكبر من أن يشرحه بكلمات بسيطة.

آدم حاول أن يرفع يديه، لكنه شعر بألمٍ شديد في معصميه.
كانت يديه مربوطة، وكأن أحدهم قد ربطهما بشدة أثناء نومه.
بدأ قلبه يخفق بسرعة.

"ماذا يحدث؟" همس لنفسه.
ثم بدأ الشريط يعود إلى ذاكرته: الاختبارات، النفق، الجدران،
الوجوه.

لقد مرّ بكل شيء.
لكن لا شيء منه كان واضحًا تمامًا.
"هل كنت تتوقع العودة إلى حياتك كما كانت؟"
سأله الضابط الآخر الذي كان ينظر إلى الشاشة.
آدم رفع رأسه، وعينه تركزان على كلام الضابط.
لم يكن يعرف كيف يجيب، لكن هناك شيء غريب في كلامه.
"أنت لست هنا لأنك أردت ذلك، آدم."
قال الضابط الآخر.

"أنت هنا لأننا قررنا أن نعيدك. لأنك لن تكون مثل أي شخص
آخر."

كانت الكلمات ثقيلة.

وأصابه شعور وكأن الواقع كله بدأ ينهار من حوله.
بدأ يشك في نفسه، وفي كل ما مر به، وفي كونه إنسانًا عاديًا.
"أنت جزء من منظومة أكبر الآن." قال الضابط.
"لا يمكنك الهروب من هذا. نحن اخترناك لأنك الأمل في تعديل
الموازين."

التعديل؟

هل كان آدم جزءًا من تجربة لخلق شيء جديد؟
هل كان مجرد قطعة في لعبة كبيرة؟
بدأت الصورة تزداد وضوحًا.
كان هو نفسه جزءًا من الخطة.
جزءًا من النظام، وليس ضحيته.
شعر أن رأسه على وشك الانفجار.
لكن شيئًا آخر اجتاحه.
"هل كنت تعرف منذ البداية؟"
همس لنفسه، لكنه لم يحصل على إجابة.
بدلاً من ذلك، بدأ الضوء يزداد سطوعًا، وفي اللحظة التي أغلق فيها
عينيه، شعر بأن الوقت قد بدأ ينقض.

وأنه، على الرغم من كونه أداة، لا يزال هناك شيء واحد في يديه،
وهو الحرية... حتى لو كانت مؤقتة.

جدران الوهم

كان الهواء ثقیلاً من حوله، ومجموعة من الأسئلة تتدافع في ذهنه بسرعة، كما لو كانت تتسابق إلى نقطة النهاية.

"ما الذي يحدث لي؟"

همس آدم لنفسه، لكن صوته بدا ضعيفاً في هذا المكان الذي امتلأ بالصمت المريب.

الضابطان اللذان كانا أمامه أصبحا الآن غير مرئيين، كما لو أنهما اختفيا وراء الجدران الزجاجية التي تحيط بالغرفة.

أين هو الآن؟

الجدران كانت بيضاء، ولكنها كانت تشبه سجنًا عاكسًا، مرآة لا تُظهر سوى الوجوه المشوشة والذكريات الضبابية.

كانت هناك نافذة صغيرة في الزاوية، لكن الضوء الذي يتسلل منها لا يكاد ينير المكان.

خطا خطوة واحدة للأمام، ثم أخرى، ثم بدأ يمشي، وكلما مشى أكثر، كلما بدا له المكان كأنه يتغير...

أو ربما هو الذي كان يتغير.

توقف عند جدارٍ شفاف.

حاول أن يضغط عليه بيده، لكن لم يحدث شيء.

ثم وجد نفسه يحرق في نفسه في المرأة.

"هل أنا من أسير هنا؟"

همس، وكان صوته يتردد في المكان، لكن الجواب الذي جاءه كان غريبًا: "نعم، أنت."
ثم،

بصوت أقل وضوحًا، شعر بشيء ثقيل في قلبه، وكأن الزمن قد توقف.

بدأت الوجوه التي مرّت في ذهنه تظهر مجددًا، كل واحد منهم يبتسم له، لكن ابتساماتهم لم تكن حقيقية.

أمه، شقيقه مصطفى، الطفل علاء، وألينا، كلهم كانوا يتراقصون في هذا المشهد اللامتناهي، وكأنهم يُظهرون له أنه محاصر في الوقت ذاته.

آدم مدّ يده ليمسك بالزجاج.

لكن يده لم تلمسه.

كانه يمر عبره.

"هذا ليس مكانًا حقيقيًا."

هرّ رأسه، حاول إيقاظ نفسه، لكن الصوت الميكانيكي عاد: "أنت جزء من هذه التجربة، آدم. أنت لن تكون وحدك في النهاية."

وبينما كانت الجدران تتبدل من حوله، لم يكن يستطيع أن يحدد إذا كان في واقع أم في وهم.

توقف أخيراً عن المشي، وكأنه أدرك أن الحقيقة ليست في المكان
الذي يقف فيه، ولا في الأشخاص الذين يراهم.
الحقيقة كانت في أبعاده الداخلية، في حرية تفكيره.
ثم قال لنفسه، بصوت هادئ: "أنا لست سجيناً. أنا حر."
لكن الجدران التي تحيط به بدأت تتغير بشكل أسرع.
بدأ المكان يضيق، وبدأت الأصوات تزداد، كأن كل الذكريات بدأت
تتجمع في مكان واحد.

الهروب من النفس

كانت الجدران تتغير بسرعة مذهلة، تتحرك وتدور كما لو أنها تعيش حياة خاصة بها، تبتلع كل ما يعترض طريقها، وتترك خلفها فراغًا لا ينتهي.

آدم كان واقفًا في وسط ذلك كله، يداه مطويتان على نفسه، وجسده مشدود من التوتر.

"لن أهرب، لا يمكنني الهروب."

همس لنفسه، وكل كلمة كانت تنبض كفعلٍ نابعٍ من قلبه.

هل هو هنا؟

هل هو موجود في هذا المكان؟

رأسه مليء بالتساؤلات، لكن شيئًا ما كان يعترض طريقه.

كان يعاني من حالة تشويش لا نهائية، حيرة بين الحقيقة و الوهم.

وفي قلبه، كان يعرف أنه مازال في المعركة التي بدأت منذ اللحظة الأولى.

اللحظة التي أُطلق فيها في هذا العالم المليء بالتجارب، واللحظة التي بدأ فيها يتسلل إليه شعور بالضعف.

"هل هذا ما كنت أريد؟"

سؤال عميق غزا عقله فجأة.

هل كانت هذه التجربة هي ما أراده؟

هل كان يبحث عن الخلاص أم عن الهروب؟
مدّ يده نحو الجدار، لكن يده توقفت في الهواء، كما لو أن الهواء
نفسه كان يقاومه، كأنه يحاول أن يثبتته في مكانه.

"هل هذا هو ما فعلوه بي؟"

"أم أنني من فعل ذلك بنفسي؟"

في تلك اللحظة، بدا له أن التجربة لم تكن مجرد اختبار بيولوجي أو
نفسي، بل كانت صراعًا داخليًا، كان فيه هو من يحاول الهروب، لكن
الهروب ليس الحل.

القيود التي يشعر بها، القيود التي كان يراها على جسده وفي عقله،
كانت أوهامًا صنعها هو نفسه، داخل عقله.

ركع على الأرض، وضع رأسه بين يديه، مغمض العينين.

ثم همس، بصوت خافت، كما لو كان يتحدث لنفسه فقط: "لا
يمكنني الهروب من نفسي."

"إذا أردت الخلاص، يجب أن أواجهني."

في تلك اللحظة، شعر بشيء ثقيل في قلبه ينهار.

كانه سورٌّ داخلي بدأ يتصدع.

تساقطت الحواجز الواهية التي بناها حول نفسه، وصار المكان كله
خاليًا،

لكن داخله بدأ ينبض بحياة جديدة.

في تلك اللحظة، شعر بالتغيير.
ولكنه كان يعلم أن الطريق أمامه مازال طويلاً.

المواجهة

آدم كان جالسًا هناك، على الأرض الباردة، عينيه مغلقتان، وقلبه يكاد ينفجر من شدة الصراع الداخلي.

كان يشعر بشيء جديد، شيء مختلف عن كل ما مر به.

"لم أكن فقط ضحية."

همس لنفسه، كأن الكلمات كانت تخرج من أعماق قلبه، وهي تكشف له حقيقة لم يكن يعرفها.

"كنت جزءًا من النظام. كنت جزءًا من هذا الوحش الذي حولني إلى مجرد آلة."

أغمض عينيه أعمق، وأخذ نفسًا طويلًا، وكأن هذه اللحظة هي اللحظة الحاسمة في حياته.

لم يكن الهروب هو الحل، ولا التسلل إلى مخرج وهمي في هذا المكان الضبابي.

بل المواجهة هي ما كان يحتاجه.

"إذا كنت سأعيش، يجب أن أعيش كما أنا."

ثم، في لحظة من الإلهام المفاجئ، تذكر مشهدًا صغيرًا من طفولته. تذكر نفسه عندما كان شابًا، يحدق في السماء بعيون مليئة بالأمل، ويتخيل أن لديه القدرة على تغيير العالم.

تذكر كيف كان يعتقد أن الحياة ستكون مختلفة.

لكن الآن، كل شيء كان يلتف حوله، ويتقيد بعقلية معينة، حتى أصبح جزءًا من النظام نفسه.

جزءًا من تجربة غير إنسانية.

"أنا لست مجرد أداة."

ارتفع ببطء من على الأرض، وفي تلك اللحظة، كان يشعر أنه بدأ يتنفس من جديد.

أخذ خطوة للأمام، ثم خطوة أخرى، ثم تراجع خطوة إلى الوراء، حتى شعر أن الجدران التي كانت تحيط به بدأت تتلاشى، وتفتح أمامه مساحة واسعة.

كان صوته يرتفع في داخله: "أنا لا أحتاج إلى أن أكون ما يريدونني أن أكون."

"أنا لست مجرد ذكرى في نظام بئس."

"أنا آدم."

ببطء، فتح عينيه، وكانت الغرفة التي حوله قد بدأت تختفي، وتتساقط الجدران، كما لو أن كل شيء قد بدأ يتفكك.

في تلك اللحظة، شعر بشيء ثقيل في قلبه، ولكنه كان ثقلاً مريحاً.

كان شيئاً قديماً قد تم تحطيمه أخيراً، وفتح له الطريق إلى الحرية.

في اللحظة التي خرج فيها من الدائرة التي حبسته، بدأ الضوء يتسلل
إلى عقله، ويزيح عن قلبه كل الظلال.

"أخيرًا."

همس لنفسه.

بدأ يركض نحو المخرج الذي لم يكن موجودًا سابقًا.
لكن هذه المرة، لم يكن يركض من شيء آخر، بل كان يركض نحو
نفسه.

الفجر الجديد

آدم كان يركض، لكن الركض لم يكن إلى مكان معين، بل كان ركضًا نحو نفسه.

بدأ يركض في فضاء لا نهاية له.

شوارع غزاها ضوء أبيض صافٍ، أرضية ناعمة كالحرير، ولكنه كان يعرف تمامًا أن هذا ليس عالمه القديم، بل هو الآن في عالم جديد.

"هل هذه هي الحقيقة؟" همس لنفسه.

في لحظة من الإدراك المفاجئ، شعر بشيء داخله يرتفع، كأن قلبه كان ينبض مجددًا.

كل شيء أصبح أكثر وضوحًا.

"لقد استعدت نفسي."

بخطى ثابتة، أصبح يسير على أرض جديدة، لكنها أرض ناعمة ومستقبلية.

لم يكن هناك حطام أو بقايا من الماضي.

بل كان هناك فقط فراغ هائل من الفرص.

عقله لم يعد مقيدًا بما كان يظنه واقعًا، ولا بأوهام التي أنشأها النظام.

بدأ يتنفس بعمق، ومع كل نفس، كان يشعر وكأن القيود التي كان يعتقد أنها تعيقه تتساقط واحدة تلو الأخرى.

الوقت الذي كان يعتقد أنه ضائع، أصبح المفتاح الآن.

كان يدرك أن الماضي، بكل صدماته، كان مجرد بداية.

"هل هذا هو الطريق الذي كنت أبحث عنه؟"

شعر بشيء غريب يتسلل إلى قلبه، ثم ابتسم، لأول مرة منذ زمن طويل.

في تلك اللحظة، كان يشعر أن الأفق يتسع أمامه.

وأن الظلام الذي كان يرافقه لم يكن سوى ظلال ماضية.

"أنا الآن لا أركض نحو مخرج.

أنا الآن أركض نحو حياتي."

وفي تلك اللحظة أيضًا، تذكر صورة عينيهِ الطفولية، وهو يقف أمام السماء اللامتناهية، ممتلئًا بالأمل.

"لقد وجدت نفسي أخيرًا."

وبينما كان يواصل الركض، أصبح كل شيء من حوله مشعًا، أرضه، سماؤه، وأفقه الذي كان يعتقد أنه غير ممكن.

من جديد

في الصباح الباكر، آدم شعر بشيء غريب، كأن الأرض تحت قدميه كانت مختلفة.

الهواء كان نقيًا، كأن كل شيء قد تطهر من آثار الماضي.
وقف أمام محيط لا نهائي، تساقطت أشعة الشمس عليه، وكأنها تلامس روحه مباشرة.

"أين أنا الآن؟"

كان السؤال يتردد في عقله، لكن لم يكن يشكل له أي عبء.
كان يعرف أن هذا المكان ليس مجرد واقع مادي.
كان يعي تمامًا أن هذا هو المكان الذي يبدأ فيه الخلق من جديد.
بدأ يسير بخطوات بطيئة، وكل خطوة كانت تجعل الزمن يزداد وضوحًا.

لم يكن هناك ماضي يطارده، ولا قيود من الماضي تحاصره.
تذكر نفسه في الماضي، ذلك الشخص الذي كان يركض دائمًا من شيء، ذلك الشخص الذي اعتقد أن الحياة هي مجرد تجربة قاسية لا نهاية لها.

لكن الآن، كان كل شيء مختلف.

"هل يمكنني حقًا أن أبدأ من جديد؟"

سأل نفسه، ولكنه عرف أن الإجابة هي: "نعم، يمكنني".
أصبح أكثر هدوءًا، وهو يواصل السير في هذا المحيط الجديد.
كلما تقدم، كلما شعر أن القيود التي كانت تحاصره تتساقط من
حوله، كما لو أن الأرض نفسها كانت تزيله عن كاهلها.

"أنا لا أحتاج أن أهرب بعد الآن."

مرّت لحظات طويلة، ولكن آدم لم يعد يسرع.
كان يسير بثّودة، وكان يعرف أن هذا الطريق الذي يسير فيه هو
طريقه، وهو الوحيد القادر على تحديده.
وفي تلك اللحظة، تذكر أول شيء تعلمه في الحياة: "الحرية هي أن
تكون قادرًا على تحديد مصيرك."

وكان هذا هو المصير الذي أراده، مصير ليس فيه هروب من
الماضي، ولا من الذاكرة.

في عالم جديد، كان يحمل روحه بنفسه، ويخلق من جديد، ويبدأ من
جديد،

حيث لا توجد قيود سوى تلك التي يضعها هو نفسه.

إعادة البناء

آدم كان يقف هناك، وسط الفراغ الذي احتل قلبه وعقله لفترة طويلة.
الأفق أمامه مفتوح، لكن ليس بطريقة تؤدي إلى الهروب.
لا، هو لم يعد يهرب، بل بدأ يتلمس الطريق نحو البداية.
كل شيء حوله كان جديدًا، وكأن الأرض نفسها كانت تغتسل من
العذاب الذي مرّ به.
لكن، كان يعلم أن ما يحتاجه الآن ليس الهروب من الماضي، بل
إعادة البناء من داخله، من أعماق ذاته التي كانت تشوهها القيود
والمشاعر المتراكمة.

"كل شيء يبدأ من جديد." قالها بصوت منخفض، لكن قلبه كان
ينبض بقوة أكثر من أي وقت مضى.
"لقد كنت أركض طوال الوقت. الآن يجب أن أتعلم كيف أمشي."
بدأ يخطو خطوات ثابتة نحو المستقبل، لا يحمل خلفه أي عبء
سوى الرغبة في الاستمرار، وفي بناء حياة جديدة.
كان يعلم أن الحياة ليست مجرد فرصة واحدة، بل هي سلسلة من
اللحظات التي يتم تشكيلها وتشكيلها مجددًا.
لم يكن هناك شيء ثابت سوى الإرادة التي تحركه.

في تلك اللحظة، كان يشعر بشيء جديد في قلبه، شيء من السكينة والسلام الداخلي، كما لو أن كل التوترات التي كانت تسيطر عليه قد تلاشت أخيرًا.

"لقد تعلمت أن السكون هو الخطوة الأولى نحو أي تغيير."

همس لنفسه، ثم ابتسم، وتابع السير في هذا الفضاء الجديد الذي يبدو كأرض بلا ملامح ثابتة.

وفي كل خطوة، كان يكتشف شيئًا جديدًا عن نفسه، فالأرض كانت نظيفة، وكان الهواء صافٍ، والشمس كانت تشرق من جديد، لكن هذه المرة كانت إشراقة حقيقية، تخرق قلبه مباشرة.

آدم بدأ يشعر أن القيود التي كانت تحيط به كانت مجرد خرافات صنعها النظام من حوله، لكن الآن، أصبح يرى الحقيقة بعينه.

"أنا لا أحتاج أن أكون ما كان يُفرض عليّ."

لقد أصبح آدم الذي كان يحلم به في صغره، ذلك الذي يسير بمفرده، مستفيدًا من كل درس تعلمه.

وفي تلك اللحظة، دون أن يراها، شعر بأن يده تربت على قلبه، كما لو أن قلبه نفسه كان يهنئه على هذه الرحلة الطويلة التي بدأها أخيرًا.

ثم، ابتسم، وواصل مسيرته في هذا الطريق الذي لا يعرف كيف ينتهي، لكنه كان يعلم أنه لن يتوقف، لأن الاستمرار هو معنى الحياة الآن.

الضوء في الأفق

آدم كان يسير بخطوات ثابتة، لكنه لم يكن يسير في طريق مستقيم، ولا في طريق سهل.

كان يعرف أن هذا الطريق لن يكون مفروشاً بالورود، وأنه سيواجه الكثير من التحديات على طول الطريق.

لكن الشيء الوحيد الذي تغير في حياته هو طريقة مواجهته لهذه التحديات.

كلما تقدم، كان يكتشف أن الحياة لا تعني الحصول على الأمان الأبدي، بل التكيف مع المتغيرات، واستقبال كل يوم على أنه فرصة جديدة للنجاح والنمو.

كان يرى أمامه الضوء في الأفق، وذلك الضوء لم يكن فقط ضوء الشمس، بل كان أملاً، أملاً ينبع من داخله، ويشع على كل شيء حوله.

"هذه هي البداية الحقيقية."

لم يكن يعرف إلى أين سيسير، لكن كان يعلم أن عليه المضي قدماً.

مرت بعض اللحظات التي كانت مليئة بالصمت، لكن لم يشعر بأي خوف.

كانت كل خطوة يمسيها تزيد من ثباته الداخلي.

"لن أعود إلى الوراء."

كانت الكلمات تتردد في ذهنه، ولكنه شعر بقوة لا مثيل لها، وكان كل شيء حوله أصبح أكثر وضوحًا، كما لو أن الضباب الذي كان يحيط به قد تلاشى.

تذكر ما مر به: التجربة القاسية، والحرب الداخلية التي خاضها، والآلام التي شعر بها.

لكن الآن، كل هذه الأشياء أصبحت جزءًا من الماضي، ولم يكن يحمل منها سوى الدرس.

ثم، شعر بشيء غريب يتسلل إلى قلبه: "لقد تعلمت أخيرًا."

تعلم أن الحياة لا تعني الانتظار للفرص، بل تعني خلق الفرص.

كان يملك القوة الآن ليبني نفسه من جديد، وليصبح الشخص الذي أراد أن يكونه طوال الوقت.

في تلك اللحظة، أدرك أن كل شيء كان يستحق العناء.

لم يكن التحدي هو ما كان يخشاه، بل الخوف من الفشل.

لكن الآن، أصبح الفشل بالنسبة له مجرد درس، والنجاح ليس هدفًا ثابتًا، بل رحلة مستمرة من التحسن.

آدم رفع رأسه إلى السماء، وشعر بالسلام الداخلي الذي لم يكن يعرفه من قبل.

الضوء الذي كان يراه في الأفق بدأ يقترب منه، كما لو أنه كان أملاً متجسداً.

"لقد بدأت أعيش."

ثم تابع سيره، دون أن يلتفت إلى الوراء، مستعداً لمواجهة ما يأتي، مستعداً لأن يكون نسخة أفضل من نفسه في كل لحظة.

النهاية أم البداية؟

آدم كان يقف على حافة العالم الجديد الذي بدأه، وكان يشعر بشيء غير قابل للوصف في قلبه.

لم يكن هناك شيء مثير للدهشة أو القلق في محيطه، لكن المعركة التي خاضها كانت قد جعلته يراها الآن بوضوح.
"النهاية..."

همس لنفسه، "أم البداية؟"

أراد أن يفهم، أراد أن يحدد ماذا يعني أن يصل إلى هذا المكان.

هل هو النهاية التي ينتهي فيها كل شيء؟

أم أن هذا التغيير هو مجرد خطوة على الطريق نحو شيء أكبر؟

لكن في النهاية، أدرك أنه ليس هناك "نهاية" واضحة، بل هناك دورة مستمرة.

لم يعد يشعر بالضياح الذي كان يرافقه منذ البداية.

كل شيء أصبح يبدو واضحًا الآن، مثل النهر الذي يستمر في الجريان رغم العواصف.

آدم أخذ نفسًا عميقًا، وتذكر كم من الأحيان حاول الهروب، أو البحث عن مخرج سريع.

لكن الآن، بعد أن عايش كل تلك اللحظات المؤلمة، أصبح يعرف شيئاً واحداً: "الحياة لا تتوقف".

"أنا هنا الآن".

لم يعد يخشى المجهول كما كان يفعل في الماضي، لقد تعلم أن المجهول هو مصدر القوة، وأن المستقبل هو حصيلة لحظة القرار الآن.

في تلك اللحظة، وقف أمامه شيء لم يكن يتوقعه، شيء أعمق من أن يدركه عقله في تلك اللحظة.

كانت الحقيقة التي جعلت قلبه يهدأ، وحياته تصبح أكثر وضوحاً.

"ما مررت به لم يكن عبثاً".

"كل تجربة كانت جزءاً مني".

بدأ يسير خطوة بخطوة، متأملاً الطريق الذي يسير عليه.

لم يكن يعلم إلى أين سيأخذه هذا الطريق، لكن كان يعلم أن هذه هي الخطوات التي يجب أن يسيرها.

"هل هذا هو الطريق الذي كنت أبحث عنه؟"

همس مجدداً.

لكن الإجابة لم تكن بحاجة إلى كلمات، كان فقط عليه أن يواصل السير في هذا المسار.

فكل خطوة كانت تكتمل مع الخطوة التي تليها.

"أنا هنا، وفي كل خطوة، أبدأ من جديد."

رغم أن الطريق أمامه بدا طويلاً، إلا أن الهدوء الداخلي كان هو الطريق الحقيقي.

ومع كل خطوة، كان يشعر أن جزءاً جديداً من ذاته ينبض بالحياة.

وفجأة، أصبح العالم من حوله أكثر وضوحاً.

كما لو أن الظلال التي كانت تحيط به قد تلاشت، وبقي أمامه الضوء، الذي كان دائماً هناك، ولكنه لم يكن يرى.

هل هذه هي النهاية؟

أم أن النهاية هي مجرد بداية؟

في قلب المجهول

آدم كان يخطو خطواته في المجهول، لكن المجهول لم يعد يرهبه.
في الحقيقة، بدأ يشعر أن هذا المجهول هو فرصة جديدة للعيش.
كان هناك سلام داخلي غريب يشع من أعماق قلبه، كما لو أنه
اكتشف سرًا قديمًا كان خفيًا عنه.

"أعيش في لحظة، وليس في توقعات."

كان هذا هو السر الذي بدأ يفهمه الآن.
الحياة لم تكن تدور حول محاولة الوصول إلى نقطة معينة، بل
كانت تدور حول الرحلة نفسها.

"كل لحظة هي بداية جديدة."

مشى نحو أفق غير مرئي، ولكنه لم يكن يشعر بالضيق.
بل كان يشعر أن هذا الأفق هو بداية شيء أكبر.
ربما لا يكون الأفق مرئيًا، لكن الرحلة التي كانت أمامه كانت هي
الهدف نفسه.

بدأ يبتسم وهو يتنقل بين المسارات المتشابكة، كل خطوة كانت تسير
به نحو شيء جديد، وبدأ يرى في كل شيء حوله جمالًا غير تقليدي.
حتى الصخور التي كان يراها، أصبحت في عينيه حكايات،
والأشجار كانت شهادات على الزمن.

"لم أعد أبحث عن شيء بعيد."

همس وهو يتابع المسير .

الآن، كان يشعر أن كل جزء من هذه الرحلة هو في مكانه، وأن
المجهول ليس شيئاً يجب أن يخشاه.

بل هو شيء يجب أن يُحتفل به.

كل شيء كان متجددًا، حتى الهواء الذي كان يلامس بشرته أصبح
جزءًا من مغامرته الجديدة.

ثم، في لحظة من الصمت، سحب نفسه إلى الوراء قليلاً، وأخذ نفساً
عميقاً.

"أنا هنا."

كل ما كان يفعله الآن هو الاستمرار، ولم يكن يشعر بأي ضغوط
لبلوغ أي وجهة.

كانت وجهته هي اللحظة نفسها.

ثم، بدأ يفكر في ما قد يعنيه هذا العالم الجديد له.

هل هو عائد إلى شيء؟

أم هو على أعتاب شيء غير مرئي، شيء أكثر اتساعاً من أي
شيء عرفه سابقاً؟

لكن في تلك اللحظة، أدرك شيئاً بسيطاً: "ما أبحث عنه هو ليس شيء خارجي، بل هو ما يوجد بداخلي."
وفجأة، توقف.

نظرت عيناه نحو السماء، وأدرك أن الضوء الذي كان يبحث عنه لم يكن في المكان الذي كان يعتقد أنه موجود فيه.
"الضوء كان دائماً هنا، في داخلي."

تمت